Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

جدلية الذات والآخر دراسة في بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن أبي نوبخت

(موضوعيا وفنيا)

د. أمينة عبدالمولى الحراحشة

مركز اللغات، الجامعة الهاشمية، المملكة الأردنية الهاشمية

الملخص

تتناول الدارسة في هذا البحث نصّاً شعريّاً يمثل موقف الشاعر من التباين الطبقي في مجتمع العصر العباسي الثاني، وقد اختارت نص " بائية ابن الرومي في عتاب سهل بن أبي نوبخت " .وقد حاولت الدَّارسة في هذا الفصل أن تعاين النص الشعري معتمدة في ذلك القراءة الداخلية للنَّص دون أن تتقيد بمنهج محدَّد ، وإنَّما تتغيا أن تفيد من المناهج التي تراها قادرة على إظهار رؤية النَّص والكشف عن معماريته وبنائيته في ضوء التفاعل القائم بين أجزائه ؛ فقصيدة ابن الرومي تمثل أنموذج الشاعر الجريء و الرافض لمظاهر التباين الطبقي والناقد الاجتماعي الذي يكشف الأدواء الاجتماعية، ويبين أسبابها ومن ثم يقدم رؤيته التي ربما دعت إلى الإصلاح أو نادت إلى الثورة واقتلاع أسباب الضعف والفساد .

Abstract

This thesis is studying a poem that represents a poet's attitude toward class disparities in the society of the second Abbasid Era. It has selected Ibn Arroumy's "Ba'eyah" in which he admonishes Sahl Ibn Abi Nubikht. This study has attempted, in this chapter, to scrutinize / to examine the piece of poetry by reading inside the poe without being bound to a particular approach, but by trying to benefit from the approaches that it deems capable of displaying the poem's point of view and of disclosing its architectural structure in the light of the interaction between its parts.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

Ibn Arroumy's poem presents the type of undaunted poet who refuses all aspects of class disparities; who is a social critic who uncovers social ailments and reveals their causes and hence offers his point of view that would either call for reform or incite revolution that would eradicate the causes of weakness and corruption.

التمهيد

وقف الشاعر العباسي في العصر الثاني من طبقات مجتمعه موقفاً يتفاوت بين الرفض غير المباشر لمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أو الرفض الساخر الذي يعتمد الرسم الكاريكاتوري للشخصيات، وأخيراً الرفض المباشر للسلطة الحاكمة وفئات المجتمع المختلفة، سواء أكان خليفة أو وزيرا أو قاضياً، فقد رفض الشاعر آنذاك الخليفة الضعيف والمنشغل بملذاته عن أمور الرعية، كما رفض الوزير غير العربي وأخذ عليه ظلمه وقسوته وأعجميته وسوء إدارته ، مثلما رفض أنموذج القاضي الضعيف والجاهل الذي قضى بغير شرع الله، وخالف أحكامه وجرى وراء شهواته وأهوائه. ومن الشعراء الذين وقفوا موقف الرفض المباشر والساخر في الوقت نفسه ابن الرومي الذي عاش في عصر امتزجت فيه المتناقضات، إذ ساده الفوضى والاضطرابات السياسية والاجتماعية، إضافة إلى الفتن والثورات والترف والمجون، وقد استطاع ابن الرومي أن يرصد مظاهر الحياة في عصره وأن يصور طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية وبروح لاتغادر السخرية والنقد المباشر، ومن ذلك بائيته التي قالها في عتاب سهل بن أبي نوبخت[1]، وقد قسمت الباحثة النص الشعري إلى ست شرائح أدرجتها في سياق البحث وثناياه.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الشريحة الأولى:الافتتاحية (1-14) [2]

1-أَحْمَـدُ اللَّـهِ حَمْـدَ شَـاكِرِ نُعْمَـى قَابِـــلٍ شُـــكْرَ رَبِّـــهِ غَيْـــرِ آبِ
2-طَـارَ قَـومٌ بِخُفَّـةِ الـوَزْنِ حَتَّـى لَحِقُـــوا رِفْعَـــةً بِقَـــابِ العُقَـــابِ[3]
3-وَرَسَـا الرَّاجِحُـونَ مِـنْ جِلَّـةِ النَّـا سِ رُسُـــوَّ الجِبَـــالِ ذَاتِ الهِضَـــابِ
4-وَلَمَـــا ذَاكَ لِلِّئَـــامِ بِفَخْـــرٍ لا ولا ذَاكَ لِلْكِـــــرَامِ بِعَـــــابِ
5-هَكَـذَا الصَّـخْرُ رَاجِـحُ الـوَزْنِ رَاسٍ وَكَـذَا الـذَّرُّ[4] شَـائِلُ الـوَزْنِ[5] هَـابِ
6-فَلْيَطِـرْ مَعْشَـرٌ وَيَعْلُـو فَـإِنِّي لا أَرَاهُـــمْ إلاَّ بِأَسْـــفَلِ قَـــابِ
7-لا أَعُـدُّ العُلُـوَّ مِـنْهُم عُلُـوّاً بَـلْ طُفُـوّاً يَمِـيْنَ غَيْـرِ كِـذَابِ
8-حِيَفٌ أَنْ تَتَنَتْ فَأَضْحَتْ عَلَى اللُّجْ جَـةِ وَالـدُّرُّ تَحْتَهَـا فِـي حِجَـابِ
9-وَغُثَـاءٌ عَـلا عُبَابَـاً مِـنَ اليَمْـ[6] ـمِ وَغَـاصَ المَرْجَـانُ تَحْـتَ العُبَـابِ[7]
10-وَرِجَـــالٌ تَغَلَّبُـــوا بِزَمَـــانٍ أَنَـــا فِيْـــهِ وَفِـــيْهِم ذُو اغْتِـــرَابِ
11-غَلَبُـونِي بِـهِ عَلَـى كُـلِّ حَـظٍّ غَيْـرَ حَـظٍّ يَفُـوتُ كُـلَّ اغْتِصَـابِ
12-إِنَّنِـي مُـؤْمِنٌ وَإِنِّـي أَخُـو الحَقْـ ـقِّ عَلِـــيْمٌ بِفَرْعَـــهِ وَالنِّصَـــابِ
13-إِنْ تَغْلِبُـــوا بِغَالِـــبِ مَغْلُـــو بٍ فَحَسْـــبِي بِغَالِـــبِ الغَـــلاّبِ
14- وَبِخِـلٍّ إِذَا اخْتَلَلْـتُ[8] رَعَـانِي بِالَّـــذِي بَيْنَنَـــا مِـــنَ الأَسْـــبَابِ

يستهل ابن الرومي قصيدته بحمد الله على نعمائه، وشكره على ما هو عليه من حال، وهذه علامات المؤمن الذي يحمد الله في السراء والضراء، ويوظف ابن الرومي صيغة الفعل المضارع (أَحْمَدُ) للدلالة على استمرارية حمده لله في كل الأحوال والظروف، ومن ثم ثبات إيمانه وهو في هذا المطلع يرسم صورة لنفسه، من خلال صيغة اسم الفاعل (شاكر، قابل، آبِ) فهو حامد وذاكر لربه، وشاكر له على نعمه، وهو بذلك يضع نتائج لما سيقدم فيما بعد من أحداث ومواقف، فكثرة المصائب، وتعقد أحداث الحياة وتغير مجرياتها، لا تفقده إيمانه بالله.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

1-أَحْمَـدُ اللَّـهِ حَمْـدَ شَـاكِرِ نُعْمَـى قَابِـــلٍ شُـــكْرَ رَبِّـــهِ غَيْـــرِ آبِ

وربما استدعى ابن الرومي هذه الصفات الإيجابية المستوحاة من روح الدِّين ليسبغ على شخصه طابعاً دينياً يستحق الاحترام والحضور في المجتمع، فإنسان يتمتع بهذه الصفات لا بد وأن يكون على قدر من الصلاح والصدق فيما يقول، ولذا نجده يوظف المعاني الدالة على ذلك، فكل كلمة في البيت تحمل دلالة الإيمان (أحمد، الله، حمد، شاكر، نعمى، قابل، ربه، غير آبِ) وكأنه يريد بأن إيمانه بالله متأصل فيه وممتد لا ينقطع في لحظة رخاء أو شدة.

ويذكرنا ابن الرومي في هذا المطلع بافتتاحية الخطبة التي يستهلها الخطيب بذكر الله وحمده على نعمه، وهو يعي أهمية المقدمة الدينية إذ إنها مدعاة للسمع ما إن يستوثق من استماع جمهوره وتعلق قلوبهم بما يقول حتى يبدأ الحديث في موضوعه الذي يريد.

وقد أشارت بعض الدراسات إلى هذه السمة الفنية لدى ابن الرومي إذ "كان يفتتح بعض قصائده بمقدمات دينية، تقوم على التسبيح بحمد الله وفي ديوانه أربع منها يهيئ بها الممدوح، فهي أدعى إلى الإنصات والانتباه، فضلاً عن أنها تناسب شخصية هذا الممدوح"[9].

وبعد هذه المقدمة الدينية ينقلنا ابن الرومي إلى إيقاع موسيقي مختلف تتراوح نغماته بين ارتفاع وانخفاض ليتناسب مع مضمون أبياته، إذ يقدم لنا مفارقة لم يشهدها من ذي قبل، ويضعنا كذلك أمام تناقض شديد من تناقضات الحياة التي تخرج عن المألوف والمنطق، وذلك يتمثل باختلال موازين الحياة واضطراب المعايير الاجتماعية التي تسود كل مجتمع؛ فأصحاب العقول السخيفة والجهلة من الناس أصبحوا في أسمى المراتب بل أصبحوا من أصحاب النفوذ والسيادة، ووصلوا إلى مراكز حساسة في الدولة وأجهزتها، بينما أهل الرجاحة من أجلاء الناس وعلمائهم وأهل الأدب والمعرفة دثروا تحت المطامع والأهواء، وحرموا من المشاركة في فعاليات مجتمعهم،

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

لا لقصور هممهم بل خوفاً من قوتهم الفكرية والعلمية، فالفكر والعلم لا يقبلان ضعيفاً أو إنساناً سلبياً أو عدواً مداهناً، فيقول:

طـار قـومٌ بخفَّـة الـوزن حتـى لحقــوا رفْعَــةً بقــاب العُقــابِ
ورسـا الراجحـون مـن جِلَّـةِ النـا سِ رسـوَّ الجبـال ذات الهضـابِ

وقد استخدم الشاعرالصورة الفنية لتنقل الواقع بدقة ووضوح إذ صوَّر السفهاء من قومه وقد وصلوا أعلى المراتب بأجسام خفيفة الوزن طارت حتى وصلت مستوى طائر العقاب، وصوّر العلماء وأجلة الناس بأجسام ثقيلة رست واستقرت في القاع، وقد منحهم _أي العلماء وأجلة الناس_ الثبات والأهمية في الوجود فهم كالجبال في عظمتها وشموخها وتثبيتها الأرض.

والشاعر في هذين البيتين يوظِّف الحقائق العلميَّة في تأكيد رؤيته، فالأجسام الخفيفة سريعة الطيران وسهلة الحركة والأجسام الثقيلة ترسو ويصعب تحريكها من أماكنها، وقد ساعده الطباق في تحقيق هذه المفارقة التي يشهدها عصره في قوله (طار، رسا) ولايفوته أن يبين للسامع أو القارئ- مستعيناً بحرف الجر (بـ) الذي يفيد السببية -أنّ ارتفاع هذه الأجسام ليس سمواً ورفعة، إنما سببه خفة الوزن (طار قوم بخفة الوزن) ثم ينتقل بحركة عكسية تماماً (رسا) للحديث عن أجلة الناس الذين لم يحالفهم الحظ، ولم يحظوا برضا السلطة لتعلي من شأنهم، ولا يفوت ابن الرومي – كذلك- أن يضفي المعاني الإيجابية على كلمة (رسا) فيجعل رسوهم كرسو الجبال التي لا يمكن أن تخفى عن الأنظار أو تستغني عنها الأرض.

إن الشاعر يكشف عن حقيقة في مجتمعه وعن تباين في القدرات والحظوظ، وهو يطرح قضية عامة ينتقل منها إلى قضيته ومعاناته الخاصة دون أن يشعرنا بذلك، فإن عدم رضاه عن هذا التباين في مجتمعه يعني أنه ممن ساء حظهم رغم رجاحة عقله، وسداد رأيه، وقوة عزيمته.

ومن اللافت للنظر أنّ الشاعر يقف موقف الندِّ لندِّه من هؤلاء السفهاء الذين نالوا الحظوة والمكانة في مجتمعه، إذ إنه ينال منهم من خلال معاني مفرداته وصوره

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الفنية، فارتفاعهم سببه خفة الوزن لا غير ذلك، كما يجعلهم نكرة (قومٌ) في حين جعل العلماء وأجلة الناس من قومه –الذين لم ينالوا حظهم ومكانتهم– جعلهم معرفة (الراجحون) موظفاً أصوات الحروف (الراء، الجيم، الحاء) التي توحي بالقوة والثبات.

نلاحظ كثرة حروف المد في هذين البيتين (طار، قوم، الوزن، لحقوا، قاب، العقاب، رسا، الراجحون، الناس، الجبال، ذات، الهضاب) وهو بذلك يطلق أنفاسه المكبوتة، ويمد آهاته وكأنه ينطلق من مساحات ضيقة ومقيدة من عالمه المشبع بالمعاناة إلى مساحات واسعة وممتدة في الفضاء الخارجي، إذ أصبح لا يقوى على تحمل أعبائه وهمومه، ولكثرتها فإنها تشق جدران صمته لتدوي في عالم أرحب ينبغي أن يشاركه تلك الآلام والمعاناة.

ويدرك ابن الرومي أن علوَّ المكانة لا يمنح الإنسان الفخر، لأنه مهما بلغ من علوٍّ وسيادة فإن ذلك لا يغير من جوهره شيئاً، كما لا ينقص سوء الحظ وقلة الحظوة والمكانة من أصحاب العقول والحصافة شيئاً؛ لأنهم قد حققوا منزلة علمية وفكرية لا يعوضها المال أو المرتبة.

وَلَما ذاك للئامِ بفَخْرٍ لا ولا ذاك للكرام بعابِ

ويحدث النفي هاهنا إيقاعاً موسيقياً يتناسب مع الحالة النفسية لدى الشاعر والمعنى الذي يسعى إلى تحقيقه، إذ لم يكتف بالنفي مرة واحدة عند الحديث عن اللئام (ولماذاك للئام) ثم قوله (لا) بينما عند الحديث عن الكرام من قومه اكتفى باستخدام أداة النفي (لا) مرة واحدة (ولا ذاك للكرام بعاب).

ولو تأملنا تتابع أداة النفي (لا ولا) لوجدناها تحقق نغمة موسيقية سريعة بين نغمتين بطيئتين (ولما ذاك للئام بفخر) و (ولا ذاك للكرام بعاب) ناهيك عن الإيقاع الصوتي الوارد في كلمتي (لئام، كرام)، ولعل هذه النغمة الموسيقية السريعة كان سببها انشغال الشاعر بالكرام من قومه وقلقه نحوهم، فرغب في الانتقال السريع إلى الحديث عنهم ويستمر ابن الرومي في رسم صوره الفنية ليستوفي المعنى الذي يريده، وقد امتاز بهذه السمة الفنية من بين شعراء عصره، فيقول ابن رشيق: "وكان ابن الرومي

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ضنياً بالمعاني، حريصاً عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولده، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن، ويصرفه في كل وجه، وإلى كل ناحية حتى يميته، ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد"[10].

وكذلك قال عنه ابن خلكان: "صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره، ولا يبقى فيه بقية"[11].

لم يكتف ابن الرومي في هذه القصيدة بتصويره لكلٍّ من سفهاء مجتمعه وأجلته بالبيتين:

طار قومٌ بخفَّة الوزن حتى لحقوا رفْعَةً بقاب العُقابِ

ورسا الراجحون من جِلَّةِ النا سِ رسوَّ الجبال ذات الهضابِ

بل نجده يقدم الصورة ثم يعلق عليها برأيه وكأنه مصور وأديب، يكتب تعليقه في آخر الصورة بلغة طريفة وبليغة، فبعد هذه الصورة الأولى يعلق على ذلك بقوله:

وَلَما ذاك للئامِ بفَخْرٍ لا ولا ذاك للكرام بعابِ

ثم ينتقل إلى صورة أخرى هي استكمال للصورة السابقة، إذ إنَّه يحرص على إعطاء الصورة أبعاداً متنوعة وفي الوقت نفسه يحرص على الإحاطة بها من زوايا مختلفة تماماً مثلما يفعل المصور البارع الذي لا يكتفي بالتقاط الصورة من جهة واحدة، فينتقل من موقع لآخر، من أعلى وعن يمين أو شمال، ومن قريب أو بعيد، حتى يحيط بالشخص المراد تصويره من جميع الاتجاهات والزوايا، وكذلك ابن الرومي يفعل؛ إذ يسقط ما في الطبيعة والبيئة من حوله على معانيه ومفرداته، فتتجلى الصورة الثانية بنفس شخوصها مع اختلاف المشبه به، فالعلماء وأجلة الناس المغمورون في مجتمعه كالصخر الراجح الوزن الراسي لثقل وزنه، وأصحاب الحظوة والمنزلة من السفهاء كالذَّر (صغار النمل) الذي لا وزن له وبمجرد هبوب الريح فإنه يتطاير كما يتطاير الغبار.

وقد استعار ابن الرومي من البيئة رموزه، فالصخر رمز الصلابة والقوة والثبات، والنمل يوحي بصغر الحجم والضعف، فقد قال:

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

هكـذا الصــخرُ راجــحُ الــوزنِ راسٍ وكـذا الـذرُّ شـائلُ الـوزنِ هـابِ

ويبدو أن ابن الرومي اعتمد على نوع من الحركة واتجاه واحد معاكس من الأعلى إلى الأسفل، لكنه غيَّر في نظرة المرء لكل ما هو أعلى أو أسفل في الدنيا، فالأعلى (طار، شائل الوزن هاب) لم يعد يمثل أنموذجاً ومثالاً كالعادة، والأسفل أصبح مكاناً لغير أهله، للأجلة العلماء.

إن هذه الحركة المتناقضة باتجاهها ومدلولاتها تمثل صورة لواقع المجتمع العباسي في عصره الثاني، إذ ارتفع أناس ليسوا على قدرمن الكفاءة والخبرة والمعرفة، وحط شأن من هم أهل للسمو والمكانة والرفعة.

وكما سبق ذكره بأن ابن الرومي لا يكتفي بالتصوير، بل يسجل تعليقاته الطريفة بعد كل صورة، إذ يرى بأنه من أهل الكفاية والمعرفة ويجد في نفسه أيضاً القدرة على اتخاذ الموقف من هذا التباين والتناقض في مجتمعه، فماذا عساه يعلق على هذا التناقض:

فليَطِرْ معشرٌ ويعلو فإني لا أراهم إلا بأسفل قابِ

إن هذا الواقع المزيف والصور غير المألوفة لم تغير من ثوابت الشاعر وأبجديات حياته .

لذا يسجل تعليقه على هذه الصورة –صورة الصخر والذر– بقوله:

لا أعدُّ العلوَّ منهم عُلواً بل طُفُوّاً يمينَ غيرِ كِذابِ

إذن العلو هنا لم يكن علواً حقيقياً إنما طفو، وهو استخدام بارع لمعاني الكلمات ودلالاتها، فالعلو يحمل معنى إيجابياً، وهنا يحرص ابن الرومي على إقرار الحقائق على ما هي عليه، فالعلو لم يكن حظ السفهاء من قومه بل كان حظهم الطفو، والطفو يحمل معنى الخفة والموت واليباس.

ويوظف كذلك أسلوب النفي لتأكيد رؤيته (لا أعدُّ)، ويحدد العلو المرفوض في نظره بقوله (منهم) ليخرج بذلك من دائرة التعميم إلى التخصيص.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وهو باستخدامه لفظة الطفو ودلالاتها يمهد للصورة التالية لحال مجتمعه ومسؤوليه وأصحاب المناصب والمكانة والرفعة، فيصورهم بالجيف الميتة التي تطفو على وجه الماء، وهو بذلك يجردهم من ملامح الحياة ويسلبهم القيمة والفاعلية، فيقول:

جِيفٌ أنتنت فأضحتْ على اللُّجْ جَـة والـدُّرُّ تحتهـا فـي حجـابِ
وغُثـاءٌ عـلا عُبابـاً مـن اليمْـ ـمِ وغاص المَرْجانُ تحت العُبابِ

ولا يكتفي بأن جعلهم جيفاً بل يبالغ في تحقيرهم وتشويههم، إذ إنَّ هذه الجيف تصدر رائحة نتنة دلالة على موتها منذ زمن، ونلاحظ ونحن نقرأ هذا النص الشعري أن الشاعر يتكئ على الطبيعة اتكاء الرسام على الألوان، والكاتب على الحروف، والموسيقي على الأنغام، فالصور حية مستوحاة من الطبيعة، يستعير الجزئيات والأجسام الجامدة والمتحركة ليركب منها صورة واحدة كلية أو مشهداً متكاملاً، ويحرص على استيفاء الصورة جميع عناصر الحياة وملامحها، من حركة ولون وصوت ورائحة، فهو يقابل حاسة بحاسة وحركة بحركة معاكسة، فحاسة الشم (أنتنت) تقابلها حاسة اللمس (الدر تحتها)، والحركة المعاكسة من الأعلى إلى الأسفل دائماً حاضرة في صوره (على اللجة)، و(الدر تحتها) وقوله أيضاً (علا عباباً) و (غاص المرجان).

ومن اللافت للنظر أن النص غني بتكوين العلاقات بين الصورة والحرف وصوته، فصورة الجيف تتناسب مع صوت الجيم والياء والفاء ثم التنوين، وصورة الدر تتناسب مع صوتي الدال والراء، وكذلك ما نجده من توافق بين اللفظ والمعنى، فلفظتا (جيف وغثاء)توحيان بالخواء والموت وانعدام القيمة، وكذلك توحي لفظتا (الدر والمرجان) بالقيمة المادية والجمالية والأهمية.

وقد اعتمد ابن الرومي كثيراً على الطباق في تصويره من أجل إقامة المفارقات، و زخرت قصائده بهذه السمة الفنية التي تعبر عن وجه من وجوه ثقافته اللغوية والكونية، والجدلية بصورة خاصة، فهو يعد اللفظة المفردة عالماً كعالم نفسه

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

يجوس خلاله، ويقف على سطوحه، ويرى من ورائه، ويستشف من داخله أبعاد الوجود"[12].

فلا يكاد يخلو بيت من أبيات قصيدته هذه من طباق مثل قوله: (طار، رسا) و(راجح، شائل) و (علا، غاص) ...الخ وهو استخدام تبدو فيه براعة وجِدَّة دون تكلف أو صنعة، فهو يقصد إلى المعاني ويستوفيها لا الألفاظ لذاتها.

وبعد أن تعرض ابن الرومي إلى طبقتين من مجتمعه، متفاوتتين في المكانة والرفعة والعلم والجهل، وقد أخذت كل منهما مكانة لا تستحقها –رفعة أو دنوّاً– نجده يكشف عن أسباب معاناته الذاتية لينتقل بحركة معاكسة اعتدناها في قصيدته من الآخر إلى الذات، ومن الخارج إلى الداخل، فهو إنسان مغلوب لم يسعفه الحظ كما أسعف غيره، وهو فرد من المغلوبين وأصحاب الحظ التعس في هذا الزمان، ولأنه لم يحقق مساعيه ولم ينجح في إقامة علاقات مع المحظوظين في مجتمعه من أصحاب المكانة والجاه والسلطة، وهو الأجدر منهم، والأكثر علماً ورجاحة عقل _ برأيه _ .

ولذا انتابه شعور بالغربة بل أصبحت إحدى معاناته، إنها غربة مضاعفة، غربة مع الذات والآخر، وغربة مع الزمن الذي يسير عكس اتجاهه، وكأن الاتجاهات المتناقضة تشغل باله لأنها تخلق التناقض، فيقول:

ورجـــالٌ تغلَّبـــوا بزمـــانٍ ... أنـا فيـه وفـيهُم ذو اغتـرابِ
غلبـوني بـه علـى كـل حـظٍّ ... غيرَ حظٍّ يفوتُ كلَّ اغتصابِ
إننـي مـؤمنٌ وإنـي أخـو الحقْـ ... ـقّ علـيمٌ بفَرْعـهِ والنِّصـابِ
وبِخـلٍّ إذا اختللـتُ رعـاني ... بالـذي بيننـا مـن الأسـبابِ

إن موقف ابن الرومي من الزمن موقف مأزوم؛ إذ إنَّ الزمن هو سبب معاناته عندما بخل عليه بحظ طيب، وفي الوقت نفسه هو سبب رفعة قوم دونه علماً ومعرفة وكفاءة، ويحقق حرف الباء الذي يفيد السببية في كلمة (بزمان) هذا المعنى، كما يدل حرف العطف في قوله (أنافيه وفيهم) على ازدواجية الغربة في نفس ابن الرومي، فهي غربة مزدوجة مركبة، غربة مع الذات وغربة مع الآخر، ويرافق هذا الشعور –الغربة–

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

شعور بالغلب والخسارة، ويتسم هذان الشعوران بالسعة والامتداد في نفسه مثلما يبدو في قوله: (أنا فيه وفيهم ذو اغتراب) وقوله: (غلبوني به على كل حظِ) وعندما يفقد كل أسباب السعادة وتبلغ أزمتة حداً كبيراً يجد من هو أقوى من هؤلاء الغالبين، وأكبر من كل حظ فاته، إنه الإيمان بالله وقدرته، وهنا تتضاءل كل القوى وتتلاشى أمام قوة الله والإيمان الصادق بأنه على حق.

ويلفت النظر ولع ابن الرومي باستخدامه الأسماء المشتقة كاسم الفاعل والمفعول، والصفة المشبهة، وصيغة المبالغة، كما في قوله:

إن تغلبوا بغالِب مغلو ... بٍ فحسبي بغالبِ الغَلاّبِ

ومع أنه يحاول أن يعزي نفسه ويخفي أحزانه وغلبه في هذا المجتمع، فإن حرف الغين المتكرر بشكل لافت يوحي بالغصَّة والاختناق، إذ تكرر عشر مرات في بيتين عدا غيرهما من الأبيات: (تغلبوا، اغتراب، غلبوني، غير، اغتصاب، تغلبوا، غالب، مغلوب، غالب، غلاب).

وإن كان ابن الرومي يلوذ بالله معيناً وناصراً له، فإنه لا يخرج عن نطاق دائرة البشر التي هو واحد منها، ولا يستغني عنها، فالخل الوفي والصادق هو_ أيضاً _عون على الأزمات والملمات، وقد استطاع ابن الرومي أن يخرج بسلاسة إلى غرض قصيدته الرئيسي وهو عتاب أبي سهل بن نوبخت، إذ كان –أبو سهل– هو ذلك الخل الذي ألفه، واستند إليه في حياته المزدحمة بألوان المعاناة لتكون **الشريحة الثانية: شريحة العتاب (15 – 41):**

جعل ابن الرومي البيتين الأخيرين من المقدمة مفتاحاً لعتابه الموجه لأبي سهل بن نوبخت حين قال:

إن تغلبـــوا بغالِـــب مغلـــو ... بٍ فحسبي بغالبِ الغَلاّبِ

وبِخـلٍّ إذا اختللتُ رعـاني ... بالـذي بيننـا مـن الأسـبابِ

إن العلاقة التي تربطه بهذا الصديق تتجاوز حدود الصداقة والصحبة إلى حد الارتباط بالنسب، وهو بذلك يسبغ على هذه العلاقة درجة من المتانة والقوة.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ثم يوظف حرف (الكاف) الذي يفيد التشبيه ليحدد ذلك الصديق وينتقل بذلك من دائرة التعميم و(بخلٍّ) إلى التخصيص والتحديد (كأبي سهل) ليكون الصديق والخل المعني بالحديث هو (أبو سهل).

ويوظف الشاعرأسلوب الالتفات لينتقل من ضمير المتكلم (قلت) إلى المخاطب (يا ابن سهل)، فيوجه عتابه إليه بطريقة غير مباشرة فيها شيء من التورية، إذ أخذ يشكو إليه بعض أصحابه الثقات، ويحدثه عن تقصير أحد أصحابه تجاهه إذ ضن عليه بالعطاء، واكتفى بعطائه المتطلبات الأساسية للحياة كالطعام والشراب والملبس، في حين يرى – الشاعر – أنه يستحق العطاء الوفير.

ويشير هاهنا إلى أن الإنسان بطبيعته يميل إلى اللهو والتصابي وإن كان ذا عسرة، فالنفس البشرية تنزع أحياناً إلى الخروج عن الجادة والاستقامة، لأنها في بحث دائم عن السعادة والمتعة، وفي خروجها هذا تجد شيئاً من السعادة، فالإنسان مهما بلغ من اتزان أو رجاحة عقل إلا إنَّه يظل إنساناً يميل إلى اللهو والطرب لا ملاكاً معصوماً عن الخطأ والزلل، إذ يقول:

وكأني في ظَنِّهِ ليس شأني ... لَهوَ ذي نُهيَةٍ[12] ولا مُتصابِ

فيَّ طبعٌ ملائكيٌّ لديهِ ... عازفٌ صادفٌ عن الإطرابِ

لقد طلب ابن الرومي من صاحبه أبي سهل منذ بداية شريحة العتاب أن يفهم اللحن الوارد في شعره، وهو يشير هنا إلى قضية اللحن التي كان العرب يستخدمونها أحياناً في مواضع لا يريدون فيها أن يفهمهم غير أناس معينين، فاللحن هنا بمثابة الإعراب، أو إن صح التعبير شيفرة تبعث لشخص محدد يعرف مفاتيحها ورموزها، وبالتالي على أبي سهل أن يفهم أنه الصديق المعني بالحديث لا غيره.

وإذا كان أبو سهل صديقاً مخلصاً فإن عليه حق الوفاء لصديقه، وإن قصر فإن العتاب لا يفسد الصداقة، فكان على أبي سهل أن يدرك أن ابن الرومي إنسان مثله لديه رغبات وأهواء وأمنيات في هذه الحياة يجدر به أن يراعيها أو يساهم في تحقيقها له.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ولا يفوت ابن الرومي أن يصور نصيبه من هذه الدنيا وقلة حظِّه مع صديقه الذي ظن أنه ملاك لا يحتاج إلى متاع الدنيا، أو أنه حمار يكتفي بسد جوعه وإشباع بطنه، فيقول:

فـيَّ طبـعٌ ملائكـيٌّ لديـهِ عـازفٌ صـادفٌ عـن الإطـرابِ
أو حماريَّـةٌ فمقـدارُ حظّـي شَـبعةٌ عنـدهُ بـلا إتعـابِ

يحيلنا هذا التصوير إلى عالمين: مثالي (ملائكي) و حيواني (حمارية)، والشاعر بذلك يقدم لنا فلسفة في كينونة الإنسان وحقيقته، فهو يمثل عالماً خاصاً به لا هو بالملائكي و لا هو بالحيواني، إنما هو كائن يجمع بين العقل والعاطفة، وبالتالي فإن أفعاله وتصرفاته تنبثق عنهما.

ويبدو أن ابن الرومي يعيش في إشكالية مع حظه الذي يسير في حركة معاكسة طالما أقلقته، فلم يكن له من صديقه إلا كل يسير وحقير في حين كان يبدي له الإعجاب ويشهد له بالفهم والبيان والحكمة والصواب، وأبو سهل لا يكتفي بالعطاء اليسير له بل يسد أمامه الأبواب ويقسو عليه ويحرمه، حتى يضيق به الأمر وتتفجر آهاته، وتنطلق أنفاسه المكبوتة ليسمعها العالم الخارجي.

ويمثل تكرار حرف الباء المنون بموسيقاه صوت دوي وانفجار هما انعكاس لما في داخله الباطني (كاتبٌ، حاسبٌ) فضلاً عن كثرة التنوين في أبيات القصيدة جميعها الذي يبعث أصوات الأنين والألم، كما جاء في أحد الأبيات: (شاهداً، فهمٍ، بيانٍ، حكمةٍ).

وبعد أن أطمأن ابن الرومي إلى أن أبا سهل بن نوبخت قد فهم لحنه وأدرك مرمى حديثه انتقل ضمن شريحة العتاب نفسها (15–40) إلى العتاب المباشر مصدراً عتابه بصيغة الفعل المضارع (أحمدُ) ليؤكد استمرارية حمده لله، الذي استهل به قصيدته، فهو رغم قسوة أبي سهل عليه وقلة عطائه إلا أنه يحمد الله على كل حال، ثم يشرع بذكر فضائل أبي سهل، فهو معطاء، وصاحب كلمة فصل في القضايا والدعاوى والنزاعات، إذ يقول فيه:

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

أحمـدُ اللهَ يـا أبـا سـهل السهـ ... لَ مـرامِ النَّـوال للطُـلاَّبِ
والفتـى المُرتجَـى لفصـل القَضـايا ... عند إشكالها وفصلِ الخطـابِ

ويشكل الإيقاع دوراً في تشكيل المعنى والكشف عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، إذ أن الإيقاع في هذين البيتين إيقاع فيه هدوء وبطء، فتتوالى حروف المد (مرام، نوال، طلاب، الفتى، المرتجى، قضايا، أشكالها، الخطاب) وهذا التوالي يسهم في تشكيل جزئيات الموقف الوجداني لدى الشاعر، إضافة إلى حرف النداء (يا) الذي يتيح ارتفاع المدى الصوتي، "وهو أتاح أمام الشاعر ليبث صديقه شكواه، مخرجاً مع هذه الألف مواجع قلبه المفعم بالهموم"[13].

ثم يأخذ الإيقاع الصوتي بالتسارع من خلال توالي حرف متحرك يليه ساكن (إذا، الزمان، بإخصاب، تربعت، فيك، إجداب) ويوحي هذا الانتقال في الإيقاع الصوتي من البطيء والهادئ إلى السريع والمتحرك بأن الشاعر قد ازدادت حدة شعوره وزاد انفعاله.

ويسهم الجناس في إبراز المعاني وتجليتها، إذ إنَّ أبا سهل له من اسمه نصيب إذ يسهل طلب العطاء منه وإن خيب آمال صاحبه –ابن الرومي– في أيام شدته ومحنته.

لذلك انبرى يواجهه بالعتاب الصريح المباشر بقوله:

لِـمَ إذا أقبـلَ الزمـانُ بإخصـا ... بٍ تربّعـتُ منـك فـي إجـدابِ
أتـرى الـدهرَ لـيس يُعجـب مـن هَيْـ ... ـجـك عتبـي إذا نـوى إعتـابي
أفـلا إذا رأيـتَ دهـري سـقاني ... بِـذَنوبٍ[14] سـقيتني بِـذنابِ[15]
أيـن منـك المنافسـاتُ اللـواتي ... عَهِدَ النـاسُ مـن ذوي الأحسـابِ
مـا هنَـاتٌ تعرضـتْ لـك فَلَّـتْ ... منـك شُـؤبوبَ[16] سـابحٍ وَثَّـابِ
أيـن عـن مُعْـرِقٍ مـن الخيـلِ طـرفٍ ... عـزَّ إحضـارُهُ اقتحـامَ العُقـابِ
أمـن العـدلِ أن تعُـدَّ كثيـراً ... لـيَ مـا تسـتقلُّ للأوقـابِ[17]

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

لا يكاد يخلو بيت من هذه الأبيات من أسلوب الاستفهام الذي يخرج معناه للإنكار، بعد أن قدَّم الشاعر لهذه الأبيات بذكر فضائل أبي سهل وطيب كرمه، وكأنه يستنكر منه أن يجمع النقيضين السخاء والكرم ، والمنع والتقتير، ويتكرر الاستفهام في هذه الأبيات بشكل لافت للنظر (لم، أترى، أفلا، أين، ما، أين، أمن العدل).

وهو يرمي من وراء تكرار هذا الاستفهام إلى مراجعة أبي سهل ذاته وتقصيره مع صديقه ثم محاولة استثارة مشاعره وكسب وده وعطائه.

وفي هذا السياق يبدو الدهر في صورة إيجابية لدى ابن الرومي على غير العادة في حين يكون الصديق سبب الشكوى والحزن، موظفاً الطباق بشكل واضح لعرض صورة كل منهما، فالدهر (يخصب، يعطف، يسقي، ذنوب) في حين أن صديقه أبا سهل (يجذب، يجافي، ويسقي بذناب).

ويوحي الاستفهام المتكرر في هذه الأبيات بإيقاع موسيقي متسارع إلى جانب التدوير في أبيات عدة منها ليدل على دفقات شعورية تملأ نفس الشاعر فيسمح له الاستفهام بإخراجها ويحقق لنفسه الراحة.

كما تشيع في هذه الأبيات وغيرها من القصيدة روح الجدل والحجاج مما يجعله "يسرف في تقصي المعاني واعتصارها اعتصاراً شديداً لا يبقى فيه زيادة لمزيد مع المحافظة على الوحدة العضوية فيها، فكل بيت يرتبط –غالباً– بأخيه من قبل وبعد، لأن المعنى لا يكتمل إلا إذا قرأنا ما قبله وما بعده، فالمعاني عنده متولد بعضها من بعض، ولا سبيل إلى الفصل بينها في كثير من الأحيان، وهذا سبب من أهم أسباب إطالة القصائد في شعره "[18].

وهذا التقصي واضح في عدم اكتفائه بالعتاب غير المباشر مع إشارته إلى اللحن في كلامه، بل نجده يوجِّه عتاباً مباشراً فيه كثير من التفصيلات والتساؤلات التي تقتضي من أبي سهل الإجابة والتعليل ويحسن ابن الرومي التخلص من الموضوع الذي يتناوله ليدخل في موضوع آخر وقضية أو ظاهرة أخرى بسلاسة وترابط، إذ جعل البيت الأخير من شريحة العتاب الموجه إلى أبي سهل تساؤلاً عن

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

قضية إنسانية كبرى يقوم المجتمع عليها ويسعد بها، وتحقق الرخاء والأمن، ألا وهي قضية العدل الذي غابت معالمه واختلت كفتاه في مجتمع قائم على الطبقية، وإن كان ابن الرومي يخص نفسه بمعاناته مع صاحبه أبي سهل في عدم إنصافه وميله وتمييز الأنذال والأخساء من أبناء مجتمعه، إلا إنَّه يجعل من هذا التساؤل تساؤلاً عاماً يطرحه كل فرد من أفراد المجتمع في عصره، إذ يقول:

أمـــن العـــدلِ أن تعُـــدَّ كثيـــراً لـــيَ مـــا تســـتقلُّ للأوقـــابِ

إن معاناة ابن الرومي هي معاناة كل ذي خبرة وكفاءة لم يأخذ نصيبه ومكانته في المجتمع، وبالتالي هو –ابن الرومي– نموذج للإنسان المضطهد والمغلوب اجتماعياً في عصره.

وقد اختار التساؤل عن العدل ليمهد به إلى الانتقال إلى شريحة ذات صلة وثيقة به، وهي نقد اجتماعي يشمل فئات المجتمع المختلفة وما أصابه من أمراض اجتماعية .

الشريحة الثالثة :بلوغ بلا شرعية (41–57)

وقد مهد الشاعر لهذه الشريحة –كما قلنا– بتساؤل طرحه في البيت الأخير من سابقتها، إذ قال:

أمـــن العـــدلِ أن تعُـــدَّ كثيـــراً لـــيَ مـــا تســـتقلُّ للأوقـــابِ

كان السؤال عن العدل في معاملة أبي سهل له، سؤالاً ممهداً لصورة المجتمع وشرائحه وظواهره –أيضاً– ، فالعدل في معاملة أبي سهل لابن الرومي –يخرج من نطاق الفردية إلى الجماعة، ويفضي الحديث عنه إلى تناول صور من تهشم ملامحه واختلال موازينه ويشكل الاستفهام الإنكاري (أمن العدل؟) جرس إنذار لأبي سهل وغيره من المسؤولين لمعاودة أنفسهم، لأن العدل أساس الحكم، واضطراب موازينه يثير الخلافات والبغضاء، ومن ثم اضطراب الحكم.

ومن هنا انطلق ابن الرومي ليوجه سهام نقده إلى بعض المسؤولين والمترفين في مجتمعه، وكأنه يريد أن يكشف في هذه الشريحة –الثالثة– عمن أشار إليهم

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

بالصور والتشبيهات في الشريحة الأولى (طار قوم بخفة الوزن، وكذا الذر شائل الوزن هاب، جيف أنتنت، وغثاء علا عبابا) فمن هم هؤلاء؟ يتبين ذلك من قوله:

أتُرانـــي دون الأُلـــى بلغـــوا الآ مـالَ مـن شُـرطةٍ ومـن كُتّـابِ
وتِجـــارٍ مثـــل البهـــائمِ فـــازوا بـالمنى فـي النفـوس والأحبـابِ

إنهم الشرطة والكتَّاب والتُّجار، والسؤال هنا هل قصرت همة ابن الرومي وعقليته ليكون دون هؤلاء مكانة في المجتمع كان على أبي سهل –وهو الأقرب إليه– أن يعرف أنه يفوق كل هؤلاء علماً وثقافة ، وهنا يضعنا ابن الرومي في هذين البيتين أمام حقيقة إنسانية، وهي سعي الإنسان إلى الفوز والكسب، وتعلقه بالآمال دائماً، فلولا الأمل لتوقف عن العمل.

ويعرض لنا كذلك بعض القطاعات الأساسية في كيان الدولة، فالقطاع الأمني للدولة (الشرطة) أولاً ثم القطاع الفكري والثقافي (الكُتّاب) وأخيراً القطاع الاقتصادي (التجار) وكلها أساسية وضرورية لقيام الدولة واستمرار كينونتها وقد رتب الشاعر هذه القطاعات ترتيباً مقصوداً لذاته، فإذا ما أرادت دولة أن تبسط نفوذها ويقوم كيانها في أي بقعة كانت، فإنها لا بد أن تنشر أفرادها، وتكثف عسكرها، وتوزع أفراد شرطتها بين الأحياء السكنية والمواطنين، ليكون الضبط الداخلي أولاً، ثم تأخذ الدولة بتنظيم شؤونها الداخلية، فالدولة تنهض بعد أمنها بمفكريها وعلمائها فكان القطاع الثاني هو القطاع الفكري والثقافي، وأخيراً لا بد من موارد مالية تؤمن مستلزمات المعيشة ومتطلبات سكان الدولة، فيكون الوارد والصادر من المواد الغذائية والتموينية وغيرها، فيكون القطاع الاقتصادي ممثلاً بالتجار من القطاعات الأساسية –أيضاً– لقيام هذه الدولة ، ولأهمية هذه القطاعات ينبغي لها أن تكون على قدر من رضا المواطنين، إذ يتوقف قيام الدولة، أو انهيارها عليها.

فهل كان ابن الرومي راضياً عن هذه القطاعات؟!!!

يكشف التشبيه الوارد في البيت الثاني عن عدم رضاه البتة عن هذه القطاعات، إذ يشبههم بالبهائم، وقد أدى حرف العطف (الواو) في (من شرطة ومن

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

كتاب وتجار) إلى اشتراك كل هؤلاء بالتشبيه، فكلهم بهائم تفتقد إلى الإنسانية والعقل الذي يقود إلى الفهم والإدراك والإدارة و....الخ.

ولم يكتف ابن الرومي –كعادته– بتقديم الصورة أو التشبيه فقط، بل يأخذ بالتفصيل وتقصي أوجه الشبه، فهؤلاء يفتقدون فصاحة اللسان وسلامة القول ، فكلامهم فيه عجمة يشبه كلام النبيط[19]، وإلى جانب ذلك فيهم جهالة أهل البدو، مع أن سلامة اللغة وفصاحة القول من أهم المقومات لشخصية كل منهم وحين شبههم ابن الرومي بالبهائم فإنه جعلهم عاجزين عن التخاطب والتواصل مع الناس؛ لعجمة ألسنتهم كحال تلك البهائم التي لا تستطيع أن تفصح عن احتياجاتها.

ومع افتقارهم لأهم المقومات المتوجبة في شخصية كل منهم إلا إنَّهم أصبحوا يرتعون في عيش هنيء، وقد حالفهم الحظ وأعطاهم الدهر حلاوته، في حين أذاق ابن الرومي وغيره التعاسة والمرارة وربما توحي صيغة المبالغة (لعَّاب) إلى كثرة مصائبه ونكباته حتى أصابه التطير، وشغله سوء الحظ وغلبة الزمان، فيقول:

فيهمُ لُكنةُ النَّبيط ولكنْ تحتها جاهليَّةُ الأعرابِ
أصبحوا يلعبون في ظل دهرٍ ظاهِرِ السُّخْف مثلهم لَعَّابِ
ليس فيهم مُدافعٌ عن حريمٍ لا ولا قائمٌ بصدر كتابِ
مُتَسَمَّين بالأمانة زوراً والمَناتينُ أخربُ الخُرَّابِ

ويشكل النفي بـ (لا، ليس) إيقاعاً موسيقياً خاصاً يتراوح بين العلو والانخفاض من خلال ما يتخللهما من حركات، فتنخفض النغمة الموسيقية عند قوله (ليس فيهم) ثم تعلو عند تنوين الضم (مُدافعٌ) ثم تنخفض عند (لا ولا) ثم تعلو عند (قائمٌ) .

وهكذا إن هؤلاء الشرطة والكُتَّاب والتجار لا ينفعون في أي موضع يتطلب المنفعة، فهم كطنين الذباب، وهنا يجردهم من المنفعة ويوظف عنصري الصوت والحركة (غناء ذباب) في رسم صورة متحركة لهم لكنهما –الصوت والحركة– لا تجنيان فائدة بل إنهما تثيران الغضب والاشمئزاز، فهذه الصورة يتوافر فيها عدة عناصر من شكل وحركة وصوت، لتوحي بمعاني يريدها الشاعر، فالصورة تفرض

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

علينا نوعاً من الانتباه إلى المعنى الذي تعرضه، وتجعلنا نتعامل مع ذلك المعنى ونتأثر به، كما أنها " تبطئ إيقاع التقاء المتلقي بالمعنى، وتنحرف به إلى إشارات فرعية غير مباشرة، لا يمكن الوصول إلى المعنى دونها" [20].

ولا شك أن ابن الرومي على وعي كبير بأهمية الصورة الفنية، لذا فقصائده – عامة– وقصيدته هذه –خاصة– زاخرة بالصور الفنية.

كما أن ابن الرومي على درجة من العناية بهندسة القصيدة مع الاهتمام بالمعنى، فلو تأملنا الأبيات السابقة لوجدناه يخص كل قطاع بشطر بيت، فالشرطة يناسبهم قوله: (ليس فيهم مدافع عن حريم) والكتَّاب يناسبهم (ولا قائم بصدر كتاب) وأخيراً التجار يناسبهم قوله (متسمين بالأمانة زوراً) ومن هنا يتبين دور كل قطاع، فالشرطة دورهم حماية الحرمات، والكُتَّاب دورهم توجيه الكتب وتلقيها، أما التُّجار فدورهم الأمانة في البيع والشراء، لكنهم جميعاً أخفقوا في القيام بأدوارهم، بل يعدهم مخربين بدرجة فائقة من خلال صيغتي اسم التفضيل (أخرب) وصيغة المبالغة (خراب).

ويلاحظ القارئ شعر ابن الرومي ترابط أبياته وتقصيه المعاني، فهو يظل على علاقة قوية بمعاني مفرداته وصوره التي يقدمها منذ بداية نصه الشعري حتى آخره، ففي الشطر الأخير من هذين البيتين نجده يصف (الشرطة، الكتاب، التجار) بالنتونة والخراب (والمناتين أخرب الخراب) وهو بقوله: (المناتين) يعيدنا إلى الصورة التي قدمها لهم سابقاً (جيف أنتنت) وكأن رائحتهم ما زالت تفوح منذ بدايات النص حتى أبيات كثيرة، وهو يجعل القارئ يشاركه حاستي الشم والبصر؛ ليجعل منه – القارئ– حكماً على هذه القطاعات الفاشلة والمخربة لكيان الأمة.

ولأن ابن الرومي شاعر نظم في أغراض الشعر المختلفة إذ مدح وهجا، ووصف ورثى، وخبر الناس والمسؤولين ونظرائه من الشعراء فقد عرف مقاصدهم وفسر مغازيهم، فعجب من هؤلاء المسؤولين (شرطة وكتاباً وتجاراً) إذ يكذبون المادحين من الشعراء ويصدقون الهجاة والعياب منهم، وهذا إن دل على شيء فإنه

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

يدل على صدق ما وصفهم به من عجمة وعدم إدراك حتى أن أسماءهم وكناهم تحمل معاني مذمومة وقبيحة لفرط جهالتهم، فيقول:

كـــاذبي المـــادحين يعلمُـــه اللّـــ ـــهُ عُـدول الهُجـاة والعُيَّـابِ

شَـغَلَتْ موضـعَ الكُنـى لا بِل الأسْـ ـمـاء مـنهم قبـائحُ الألقـابِ

والمتمعن في أبيات القصيدة يجد أن ابن الرومي يعيش الإيقاع الموسيقي ويحاكي نفسيته التي تعاني الغلب وسوء الحظ وتأمل بالفوز وحسن الطالع، فتتراوح نغماته الموسيقية وأصوات حروفه بين علو وانخفاض، وبين مد وقصر، وحركة وسكون، ويجد في الأساليب اللغوية كالعطف سبيلاً لذلك، كما ورد في قوله (لا ولا) في غير موضع، وقوله في البيت التالي:

خيرُ ما فيهُم ولا خيرَ فيهم أنهم غيرُ آثمي المُغتابِ

إذ تشعر وكأنك أمام حركتي مد وجزر عندما تسمع قوله (خير ما فيهم)، و (ولا خير فيهم) فتوحي عبارة (خير ما فيهم) بالاسترخاء وتوقع الخير وكل ما هو حسن، لكن لا تلبث أن تنشغل بالتوقعات حتى تفاجئك عبارة (لا خير فيهم) بحركة معاكسة تقطع عليك استرخاءك وتمحي كل ما أحسنت من ظن أو توقع.

وهنا يتأخر الخبر عن المبتدأ؛ ليأخذ الإيقاع الموسيقي بتشكيل معانيه ومدلولاته، فهؤلاء كلهم شر باستثناء أمر واحد وهو أن من يغتابهم لا يأثم.

ويحق لحرف الغين أن يشار إليه في هذا النص الشعري؛ لكثرة تردده وحضوره بشكل لافت " فصورته الصوتية وهو يدغدغ الحلق عند خروجه، لهي أشبه ما تكون بدغدغة محسَّة من حديد تزيل غباراً عالقاً بجلد بعير، وإذا خفف صوته قليلاً، كان أشبه بحفيف ممحاة من نسيج خشن تحك خطوطاً طباشيرية مرسومة على لوح أسود، ويتطاير الغبار إن صوته يوحي بغرغرة الموت والإمحاء" [21].

وهذا هو شعور ابن الرومي في حياته المليئة بالمآسي والنكبات حيث الفقر والحاجة، وفقد الزوجة والأبناء، وذمامة الشكل، وسوء الحظ وقلة الحظوة، فلذلك نجده إنساناً ساخطاً ثائراً على المحظوظين، ناقداً الحكام والوزراء والمسؤولين، غاضباً على

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

أثرياء مجتمعه، ساخراً من نماذج إنسانية كثيرة، فيشوه مناظرهم ويكشف عيوبهم ليجد في سخريته انتقاماً منهم وشعوراً بالفوز والغلبة عليهم.

وبعد أن صور ابن الرومي قلة إدراكهم، وضعف مستواهم الفكري والثقافي، أخذ يكشف عن الجانب الخلقي والاجتماعي لديهم، ليرسم بالتالي صورة من صور الفساد الاجتماعي الذي أصاب المجتمع العباسي، ويرصد الأسباب الباعثة لهذا الفساد، فالشاعر هنا يؤرخ لمرحلة من مراحل العصر، ويقدم ملخصاً عن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إنهم يعيشون في ترفٍ ونعيم، يتمتعون بملذات الدنيا منشغلين بها عن إدارة شؤون البلاد، فيقول:

ويظلــون فــي المنَــاعم واللــذّا ... تِ بــين الكواعــب[22] الأَتــرابِ

لَهُمُ المُسمِعَاتُ ما يُطربُ السا ... مــــعُ والطائفـــاتُ بـــالأكوابِ

إذن حياتهم لهو وترف، تحيط بهم الجواري والمطربات، حيث الغناء والرقص وشرب الخمر[23].

ويدل الفعل المضارع المسند إلى واو الجماعة (يظلون) على استمرارية مجالس اللهو والطرب هذه، إذ يبدو أنها لا ترتبط بمناسبة معينة، كما يدل على اشتراك كل هذه الفئات جميعها في حضور هذه المجالس شرطة وكتاباً وتجاراً وكل من له صلة بهم، وشيوع الاختلاط بين الرجال والنساء.

وقد نجح ابن الرومي في تقديم صورة مجالسهم في هذين البيتين، إذ إنَّه قدَّم الأسباب الباعثة على اللهو والفساد، وهي: الترف والغنى (المناعم)، والنساء الحسناوات (الكواعب)، والطرب والغناء (المسمعات ما يطرب السامع)، وأخيراً الخمرة (الأكواب) وهذه جميعها تحقق للإنسان شعوراً باللذة وتجعله فاقداً للوعي والإدراك.

وهنا تتفاعل الحواس لتضفي على الصورة بعداً حقيقياً، وتجعل القارئ يستشعر الصورة ويتخيلها، ويكمل عناصرها الأخرى التي لم تذكر، فنجد حاسة اللمس في قوله: (المناعم) والتذوق في قوله: (اللذات–الأكواب) ثم حاسة السمع (المسمعات،

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

السامع) فضلاً عن توافر عنصري الصوت والحركة، لتأخذ الصورة طابعاً حيوياً، وأي صوت وأي حركة نجد؟ إنه صوت الغناء والمزامير والدفوف، وإنها حركة الرقص والتمايل بين الجواري والمطربات، وحركة طواف بأكواب الخمر (الطائفات بالأكواب).

وقد نستشف من صيغة اسم الفاعل (الطائفات) معاني متعددة كتعلق هؤلاء بمجالس اللهو والشرب بما تعطيه الكلمة من مدلول ديني (الطواف)، وكثرة الساقيات وحركتهن الدائرية التي لا تنقطع فالشاعر" لا يهتم بالصياغة اللفظية بقدر اهتمامه بإبراز الإحساس في أدق تفاصيله، وابتكار الصور والمعاني الجديدة، واستقصائها إلى أبعد غاياتها "[24].

وتتصل معاني الشاعر بعضها ببعض، وتتواشج صوره في شرائح القصيدة جميعها، فإن كان قد صور تلك الفئات المسؤولة في موضع سابق بالبهائم (وتجار مثل البهائم) فها هو يعود ويصورهم مرة أخرى ببهائم تتفيأ عليها ظلال نعم الله تعالى، فلا يشكرونها مع أنها تزيد عليهم، ولا يجحدونها بانتظارها فهم عنها لاهون، لذا فيرى أنه من العدل أن تزول هذه النعم عنهم، فيقول:

نَعَـــمٌ ألبســـهُمُ نِعَـــمُ اللـــــ ـه ظـلالَ الغصـون منهـا الرطـابِ
حـين لا يشـكرونها وهـي تَنمـي لا ولا يكفرونهـــــا بارتقـــــابِ
إن تلـك الغصـونَ عنـدي لتُضـحي ظالمـاتٍ فهـل لهـا مـن متـابِ

إن هؤلاء المترفين حين أسرفوا في لهوهم وشربهم الخمر غابت عقولهم عن الوعي، وبالتالي أصبحوا كالبهائم التي لا تعقل ، فهذه الصورة على ارتباط وثيق بصورة مجالس اللهو والشرب.

ويشكِّل الجناس غير التام (نَعَمٌ- نِعَمٌ) في هذين البيتين إيقاعاً موسيقياً واضحاً، فضلاً عن تكرار النفي للعبارة ذاتها (لا ولا) في عدة مواضع من القصيدة.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وتشيع هنا روح الثورة على هذه الطبقة المترفة التي ترفل بأثواب النعيم بينما تكابد عامة الشعب البؤس والحرمان، حتى أن هذه الطبقية أدخلت في نفوس الفقراء والبؤساء الكره والحسد، حتى لنجد الشاعر يقول:

ما أُبالي أأثمرتْ لاجتناءٍ بعد هذا أم أيبستْ لاحتطابِ

إن الحرمان الذي يعانيه ابن الرومي وغيره من أبناء الطبقة الكادحة جعلتهم لا يبالون بزوال هذه النعم عنهم أو تحولها لغيرهم، أو زوالها أبداً، ولعل السبب أنهم لم يذوقوا طعمها حتى يتمنوها أو يدعوا دوامها، وهم كذلك لا يأملون بفئة غنية أخرى؛ لأنها ستكون كغيرها.

ومن اللافت للنظر أن ابن الرومي يوظِّف الطباق –وغيره من المحسنات البديعية– لتحقيق المعاني التي يريدها كما في قوله: (أثمرت، أيبست) و (اجتناء– احتطاب) وهذه ظاهرة لافتة في قصيدته، لأنه يقيم مقابلة بين طبقتين متناقضتين في المستوى المعيشي والفكري، ويعمد إلى تصوير حياتيهما.

الشريحة الرابعة : لوحة الخمرة والساقيات (58–87)

إن انتشار مجالس اللهو، وشرب الخمر، ومنادمة النساء الحسناوات من الجواري كانت من الأسباب الباعثة لفساد تلك الفئات المسؤولة في المجتمع، التي يقع على عاتقها ضبط شؤون البلاد، وتصريف أمورها، ومتابعة أفراد رعيتها، لكنها انشغلت بملذاتها، وانغمست في شهواتها[25].

ولم يكتف شاعرنا ذو النفس الطويل، بذكر تلك الأسباب، بل نجده يفرد ما يقارب الثلاثين بيتاً لوصف الخمرة والجواري الساقيات، وهنا تبرز مقدرته الفنية على التصوير، فيسجل حضوراً فنياً، وينشغل برسم لوحة يروِّح فيها عن نفسه وسط زحام الهموم والآلام، ويطرد عن سامعيه الملل والسأم، ويصف في الوقت نفسه شريحة اجتماعية عج بها المجتمع العباسي آنذاك وهي شريحة الجواري والقيان.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

يستهل الشاعر هذه الشريحة بـ (كم) الخبرية التي تفيد التكثير ليدل على كثرة الساقيات من الجواري الحسناوات وكذلك كثرة الخمرة التي تديرها تلك الساقيات بين الشاربين من أولئك الرجال والمسؤولين، فيقول:

كـم لـديهم للهـوهم مـن كَعـاب وعجـوزٍ شـبيهةٍ بالكَعـابِ

أما الخمرة التي يتعاقرونها فهي من أجود الأنواع، معتَّقة مضت عليها عدة أعوام، وهي من أطيب كروم العنب، تديرها ساقية لا تقلُّ طيب مذاق عنها، فتعلق بهما النفوس والعيون، إذ يقول:

خَنْـدَريس[26] إذا تراخـت مَـداها لبسـت جِـدةً علـى الأحقـابِ

بنـتُ كـرمٍ تُـديرها ذاتُ كَـرْم موقَـدِ النحـرِ مثمـرِ الأعنـابِ

حِصْـرِمٌ مـن زَبرجـدٍ بـين نَبْـع مـن يواقيـتَ جمرُهـا غيـرُ خـابِ

فـوق لَبّـاتِ[27] غـادةٍ تتـرك الخـا لـيَ مـن كـلّ صَـبوةٍ وهْـو صـابِ

يقود وصف الخمرة الشاعر إلى وصف الساقية، فكلاهما يحدث أثراً للشاربين، وهو يحرص كذلك على التناسب والتناسق بين صوره الفنية، لتكون من حقل واحد لا تنافر بينها أو تباعد، فالخمرة –مثلاً– أصلها من العنب، والساقية تلبس في عنقها قلادة تحمل حبات عنب صغيرة خضراء متخذ من الزبرجد الأخضر، وهي متشابكة من الياقوت الأحمر، تتوقد، فتجذب الأنظار إليها، وتسلب العقول لجمالها.

ولعل ابن الرومي أقام هذا التناسب بين الصورتين ليعطي معنى يريده، وهو أن الشارب يسعى إلى امتلاك تلك الجارية الساقية كما حصل على الخمرة المتخذة من العنب، لتحدث في نفسه اللذة التي ينشدها، إذ إنَّ هذه الساقية (الغادة) تترك الخالي من الصبوة والطيش مفعماً بهما.

وتأتي أصوات الحروف في هذا المقطع الشعري متناسقة، وذات جرس موسيقي هادئ من خلال تنوع مخارجها وتناغم إيقاعاتها، فالشاعر هنا يخلو من الانفعال أو الإحساس بالألم والمعاناة، وينشغل بكل ما يُثير الجمال فنجده يعيش

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

المشهد، فتلهو نفسه، وتنطلق ريشته لترسم ما أثار قريحته وأوقد شاعريته، إنه ينشغل بالفن للفن ذاته.

وإذا كانت الخمرة تزيَّن بالحرير والحلي فالساقية كذلك، إذ تزين صدرها بقلائد الزبرجد والياقوت، تضع على شعرها الأسود قلادة من الدرِّ، وقد عبر عن صغر سنها بسواد شعرها وخلوه من الشيب سوى القلادة الدُّريَّة التي تشبه في لونها لون الشيب. وهنا يحضر اللونان المتضادان: الأسود والأبيض وهما مطلوبان ومرغوب بهما لدى الشاعر؛ إذ إنَّ كلاهما موطن جمال، فشدة سواد شعر المرأة علامة جمال، والحلي تزيد من جمالها خاصة ما غلا ثمنها ، وصفا لونها ، وتشغل الألوان المضيئة مساحات من هذه الشريحة، فتغير من نفسية الشاعر المعتمة، وتدخل إلى نفسه الإحساس بالجمال والحاجة إليه ، وتشغله كذلك الصور اللطيفة والجذابة، فيقول:

لــونُ ناجودِهــا[28] إذا هــي قامــت ... لــون ياقوتهــا المضــيءِ الثقــابِ

وعلــى كأســها حَبــابٌ[29] يُبــاري ... مــا علــى رأســها بــذاك الحِبــابِ

دُرُّ صــهباءَ قــد حكــى دُرَّ بيضــا ... ءَ عَــروبٍ كَدُمْيــةِ المحــرابِ

تحمــلُ الكــأس والحُلــيّ فتبــدو ... فتنــــة النــــاظرين والشُــــرَّابِ

إن الشاعر يقيم العلاقات بين الألوان، فلون الخمرة وإنائها يشبه لون ياقوت الساقية المضيء، ولون الخمرة ذاتها بما فيها من حُمْرة يشبه حُمْرة وجه تلك الساقية البيضاء، وما ألطف تلك الصورة لحبات الفقاقيع الدائرية واللامعة التي تطفو على سطح كأس الخمرة فهي تشبه حبات الدر الكروية اللامعة على رأس الجارية الساقية إن الشاعر هاهنا يجد أن الساقية تعادل الخمرة جمالاً ولذة، وفتنة، حتى أن عباراته جاءت متساوية ومتوازية فعلى سبيل المثال:

الخمرة	الساقية
لون ناجودها	لون ياقوتها
وعلى كأسها	ما على رأسها

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

دُرٌّ صهباء	دُرٌّ بيضاء

فالعبارات تحمل إيقاعات موسيقية متماثلة تدل على أثر كل من الخمرة والساقية في نفس الشاعر وشغفه بهما، إن الشارب يسعى للوصول إلى امتلاك الخمرة سعيه لامتلاك الساقية، فكلتاهما مصدر جمال وإعجاب ولذة، فهو يشرب بفمه الخمرة وبعينيه جمال نحر الساقية، وهنا يعمد الشاعر إلى تراسل الحواس فالطرف (البصر) يشرب (التذوق) من جمال نحر الساقية فيقول:

يـــا لهـــا ســـاقياً تُـــدير يـــداه ... مَســتطاباً يُنــالُ مــن مُســتطابِ

لَـذةُ الطَّعـمِ فـي يَـدَيْ لـذّةِ الملْـ ... ـثَـمِ تـدعو الهـوى دعـاءَ مُجـابِ

حولَهـا مِـنْ نُجَارِهـا[30] عـينُ رمـلٍ ... لـيس ينفـك صَـيدُها أُسـدَ غـابِ

يُونـقُ العـينَ حسـنُ مـا فـي أَكُـفٍّ ... ثَـمَّ تَسـقي وحُسْـنُ مـا فـي رقـابِ

ففـــمٌ شـــاربٌ رحيقـــاً وطَـــرفٌ ... شـــارب مـــاءَ لَبّـــةٍ وسِـــخابِ[31]

وإن كانت مقدمة القصيدة وشريحة العتاب تمثلان مرحلة الانكسار والهدم في ذات الشاعر فإن شريحة الساقية والخمرة تمثل مرحلة الارتواء والبناء؛ فهو يشبع هاهنا لذته الفنية، و يرسم صور تلك الشريحة بدقائقها وتفصيلاتها، مسبغاً عليها أجمل الألوان وأبدع الحركات والأصوات، فكان هو الشاعر والفنان والمصوِّر والموسيقي في آن واحد، إذ نجده ينتقل عبر الصور من إيقاع موسيقي يتراوح بين علو وانخفاض إلى إيقاع هادئ، ومن حركة متناقضة بين الأعلى والأسفل إلى حركة فيها انتظام ودوران، ومن صور الصخور والبهائم والذَّرِّ إلى صور الدُّرِّ والياقوت، وعيون البقر الوحشي، والرضاب والمياه العذبة، فيقول:

وَمِـزاجُ الشَّـرابِ إن حـاولوا المـز ... جَ رُضـابٌ يـا طيـبَ ذاك الرُّضـابِ

مـــن جَـــوارٍ كـــأنهنَّ جَـــوار ... يتسلســـلنَ مـــن ميـــاهٍ عـــذابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ولا ينسى ابن الرومي أن يصف ثيابهن، فهي رقيقة تشف عما تحتها، كرقة الهواء أو السراب، فيقول:

لابساتٍ من الشفوف لَبوساً ... كالهواء الرّقيق أو كالسرابِ

ومن الجوهرِ المضيء سناهُ ... شُعلاً يلتهبنَ أيَّ التهابِ

فترى الماءَ ثَمَّ والنارَ والآ ... لَ بتلك الأبشارِ والأسلابِ

يوجسُ الليلُ رِكْزَهُنَّ فينجا ... بُ وإن كان حالِكَ الجِلبابِ

عن وجوهٍ كأنهنَّ شموسٌ ... وبدورٌ طلعنَ غبَّ سحابِ

وهنا نجد ابن الرومي يجمع ظواهر طبيعية متعددة: كالهواء، والسراب، والماء، والنار، والليل، والشمس، والبدر، والسحاب؛ ليضفي على صوره ملامح الحياة، ويضع الإنسان أمام قدرة أعظم من قدرته، وإرادة تغلب إرادته، وواهباً يفوق أعطيته ويخرج الشاعر من هذه الشريحة إلى شريحة أخرى تغايرها في الإيقاع والعاطفة، وفي المعنى والغاية، فيصور في خاتمة الشريحة مشية تلك الساقيات ورشاقتهن، وتمايل أجسادهن، ومداعبتهن الشاربين، ليشرع بعد ذلك إلى نقد الشاربين، والكشف عن أهوائهم وفساد أخلاقهم فيقول:

فتمايلنَ باهتزازٍ غصونٍ ... ناعماتٍ وبارتجاج روابي

ناهداتٍ مطرّفاتٍ يمانع ... نك رُمَّانَهُنَّ بالعُنَّابِ

لو ترى القومَ بينهنّ لأجبر ... تَ صُراحاً ولم تقلْ باكتسابِ

وفي البيت الأخير من الشريحة يتعرض الشاعر لمن صرح عنهم في بداية النص الشعري وعرَّض بهم وكنَّى عنهم بقوله: (القوم) ويشير إلى مبدأ الاختيار والجبر في الحياة، فمن يعاين مجالس اللهو والشرب لهؤلاء المسؤولين وتلك الجواري يدرك أن هناك في الحياة ما يجري جبراً لا سبيل للإنسان في التدخل به أو الاختيار، وهنا يذكرنا ابن الرومي بحظه التعس، وقدرته ومؤهلاته التي لم تكسبه الرفعة

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

والحظوة، فهو لم يختر مكانه في هذا المجتمع كما لم يختر غيره من المسؤولين والسادة من هم أقل منه شأناً.

الشريحة الخامسة :الرفض والثورة (الأبيات 89-117)

كان ابن الرومي منذ مطلع القصيدة وحتى هذه الشريحة شاعراً متأملاً؛ لا يكف عن متابعة ظواهر الحياة وقراءة أسبابها، ومن ثم رسم الصور ومقابلتها بالواقع، لا سيما أن واقع مجتمعه يشهد العديد من الظواهر الاجتماعية التي تستوقف كل شاعر يعي مسؤوليته تجاه مجتمعه، فإن أبدع في تصوير الخمرة والساقيات فهو يعرِّض من بعيد بهذا الترف الذي يقابله فقر مدقع، ويرفض تولي أولئك المسؤولين الذين يفتقرون إلى العلم والمعرفة والقيم والأخلاق، ويرفض كذلك لهوهم وانشغالهم عن أمور الرعية، وتلك القسمة غير العادلة بين (الجهلة والسفهاء) و (الأجلة العلماء).

وهو في البيت الأخير من الشريحة السابقة انتقل من مشهد الجواري الساقيات إلى الحديث عن المسؤولين والمترفين بين تلك الجواري، ليقدم لنا رؤية فلسفية خاصة به تمثلت في أن تفاوت الحظوظ في الحياة والسعادة شيء خارج عن الاختيار والاكتساب، فالسُّعداء لم يختاروا سعادتهم كما التعساء لم يختاروا تعاستهم، فكلاهما مجبر على ما هو فيه. ومن هنا فإن هؤلاء السعداء والمحظوظين من القوم لا يرتضون أن يكونوا عبيداً، لكنهم أصبحوا سادة ومسؤولين، حتى أن الفلك كان حليفهم، فيقول:

لو تَرى القومَ بينهنّ لأجبر ... تَ صُراحاً ولم تقلْ باكتسابِ

من أناسٍ لا يُرْتَضون عبيداً ... وهمُ في مراتبِ الأربابِ

حالهم حال من له دارت الأفلاك واستوسقت على الأقطاب ،و يفسر حرف الجر الذي يفيد السببية (من أناس) السبب الذي حدا بابن الرومي للقول بمبدأ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الجبرية، فكيف يصل إلى أسمى المراتب أناس لا تقبلهم عبيداً، وكيف حط شان العلماء وذوي الخبرة والكفاءة ؟!.

ويجعل من حركة النجوم والكواكب أسباب سعادة أولئك العبيد ، وكأن النجوم والكواكب تفعل فعل الدهر تتجاوز أصحاب العقول والخبرة والمعرفة وتنتخب السفهاء والجهلة.

ثم يخرج من حيز الفضاء والفلك ليجعل الدنيا بأسرها شريكة في انقلاب الموازين والتحيز للمحظوظين وإهمال العلماء القديرين، فيقول:

وكذاك الدنيا الدنيَّةُ قدراً تتصدَّى لأَلأم الخُطّابِ

مُكِّنوا من رحالِ مَيْسٍ وطيئ تٍ وأصحابُنا على الأقتابِ[30]

يصور الشاعر الدنيا التي أقبلت على أولئك السفهاء وأعطتهم حلاوتها بعروس قبلت خطبة ألأَم الخطاب فغرَّها منظرهم وثراءهم وأعرضت عن غيرهم.

ويعبر الجناس غير التام بين كلمتي (الدُّنيا والدَّنية)عن سخط الشاعر على الدنيا وعلى أولئك الخُطَّاب ، بالإضافة إلى صيغة اسم التفضيل (ألأم)، كما يبين نتيجة ما فعلته الدنيا إذ أصبح قوم في نعيم وهناء (رحال ميس وطئيات) بينما الآخرون من العلماء والأجلة في شقاء وعناء (وأصحابنا على الأقتاب).

يحرص ابن الرومي على تقديم الشواهد والأدلة على صدق ما يقول أو يعرض من أمور في مجتمعه، فها هو يعطي شاهداً من الأجلة والعلماء الذين أعرضت عنهم الدنيا وأغفلهم الزمان، فابن عمّار واحد من هؤلاء الذين عدا عليهم الزمان وتركه كالمرُتاب، ثم يذكر صفاته إذ هو فتى في مقتبل العمر وذو علم وحكمة، لكن الدهر سلب منه كل شيء إلا ما عليه من لحم وجلد وربما لو استطاع ذلك لفعل، فيقول:

كابن عمار الذي تركتْهُ حَمَقَاتُ الزمان كالمُرتابِ

من فتىً لو رَأيتَهُ لرأتْ عيْـ ـناك عِلماً وحِكمةً في ثيابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

بـزَّهُ الـدهرُ مـا كسـا النـاسَ إلا ... مـا عليـه مـن لَحمـه والإهـاب

أو حُلـى ظَرْفـهِ التـي نَحَسـتْهُ ... فلـو اسـطاع باعهـا بجِـرابِ[32]

إن النتيجة المنطقية أن ينصف الزمان العلماء والحكماء لكن ما أصابهم من مصائب ونكبات كابن عمار جعلهم في شك من جدوى العلم والحكمة وكأن الزمان ليس زمانهما مما قاد ابن عمار أن يظن أن العلم والحكمة والكياسة هي ما جلبت له النحس ففكر أن يبيعها بأبخس الأثمان، وتتزايد حدة شعور ابن الرومي لشدة ألمه على حال ابن عمار وأمثاله فيأخذ بالدعاء على هذه الدنيا بأن يصيبها أعظم مكروه لما أغضبت وأحزنت أمثاله، إذ يقول:

سـوءةً سـوءةً لصُـحبة دنيـا ... أسـخطتْ مثلَـه من الأصـحابِ

يدل تكرار الدعاء (سوءةً سوءةً) على شدة غضب ابن الرومي وسخطه على هذه الدنيا، كما تدل كلمة (مثله) على أن ابن عمار لم يكن هو الشاهد الوحيد على انقلاب الموازين وسوء حظ العلماء في هذا العصر –العباسي الثاني ، إنها ظاهرة اجتماعية أصابت المجتمع العباسي في عصره الثاني، حيث شيوع اللهو وشرب الخمرة، وكثرة الجواري وانتشار الفساد، وتولية الأعاجم أمور البلاد، وتباين المستوى المعيشي بين طبقات المجتمع وغيرها .

وهنا لا يرى ابن الرومي سبيلاً لصلاح حال البلاد إلا بالثورة، وتنظيم الصفوف ممن يغارون على الحق ويغضبون له، فيقول:

لهـفَ نفسـي علـى مَنـاكيرَ للنُّكـ ... ـرِ غضـابٍ ذوي سـيوف عِضـابِ

تغسِلُ الأرضَ بالـدماء فتُضـحى ... ذاتَ طُهـر تُرابُهـا كـالمَلابِ[33]

مـن كـلابٍ نـأى بهـا كـلَّ نـأيٍ ... عـن وفـاءِ الكـلابِ غـدرُ الـذئابِ

واثبـاتٍ علـى الظِّبـاء ضِـعافٍ ... عـن وِثـاب الأسـود يـومَ الوِثـابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

يدعو الشاعر هنا إلى تطهير المجتمع من تلك الفئة الظالمة والمفسدة، وينادي بالثورة، ولا يقبل إلا السيوف سلاحاً يشهر في وجه أولئك المفسدين، فتغتسل الأرض بدمائهم لتعود نقية طاهرة وطيبة.

وتوحي عبارة (لهف نفسي) بشدة شوق الشاعر ولهفته إلى الانتقام لذاته وأمثاله من المغلوبين ممن لحقهم الضيم والجور، إلى تطهير الأرض بأسرها من هؤلاء المسؤولين، وقد وصفهم بالكلاب (من كلاب) لكنهم أخذوا عنها النجاسة وتركوا الوفاء، ليشتركوا مع الحيوانات المفترسة في صفة أخرى فهم كالذئاب التي أخذوا عنها صفة الغدر، إذ تغدر بضعاف الغنم وتجتنب الأقوياء منها.

ولعل اختيار الشاعر لقافية الباء المكسورة والمسبوقة بحرف مدٍّ تشعرنا بأنه يبحث عن الفرج في وسط زحام المصائب، ويتبين ذلك من خلال حركة الشفتين فمن فتحهما عند حرف المد (ا) إلى ضمهما عند حرف (بِـ) ثم فتحهما وانفراجهما عند الإشباع.

إن ابن الرومي ليس كواحد من أبناء مجتمعه يكدح ليعيش، وينجب أولاداً ويملك حُطاماً، إنه فنان شاعر، لذا فمسؤليته تبدأ من تغيير نظام الحياة ذاتها، هادفاً إلى الجمال والكمال، ملاحظاً في دورانه حول ذاته شؤون الناس والكون.

وقد دفعه هذا الإحساس إلى الوقوف عند مواطن الخلل، ومتابعة الأسباب والدوافع لكل ظاهرة اجتماعية تخل بالنظام وتضرب البنية الاجتماعية، كما أدرك أن طبيعة حياة المجتمع ومستواه المعيشي يفرزهما النظام السياسي والإداري، وقد امتلك الجرأة للوقوف عند بعض كوادرهما، فها هو يعود مرة أخرى معرِّضاً برجال الشرطة، إذ يقول:

شُـرَطٌ خُوِّلـوا عقائـلَ بيضـاً ... لا بأحسـابهم بـل الاكتسـابِ

مـن ظبـاءِ الأنـيس تلـك اللـواتي ... تتـرك الطـالبين فـي أنصـابِ

فـإذا مـا تعجّـبَ النـاسُ قـالوا ... هل يصيد الظباءَ غيرُ الكلابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

نلاحظ أن ابن الرومي في هذا السياق الشعري يصرح للمرة الثانية بمأخذه على رجال الشرطة ويرفض زعامتهم لهذا المنصب الأمني، كما نلاحظ أنه لم يشر إلى جهات مسؤولة أخرى، ولعل ذلك يعود إلى أمرين أولهما: الخوف من السلطة وغضبها، ومن ثم نيل عقابها، وثانيهما: أنه جعل من الشرطة مثالاً وشاهداً على الفساد السياسي والإداري كابن عمار الذي جعله شاهداً على تعاسة العلماء والأجلَّة من أبناء المجتمع.

ولو تأملنا الفعل الماضي المبني للمجهول (خُوّلوا) بما يعطيه من معنى دلالي لوجدنا أن ابن الرومي ينتقد بإيماء من هم أعلى منصباً سياسياً من رجال الشرطة؛ إذ إنَّه يأخذ على من خولهم ذلك المنصب، مؤكداً من خلال أسلوب النفي (لا بأحسابهم) أنهم لا يستحقون منصبهم لكن الحظ الأعمى ساعدهم.

نلاحظ أن كلمة (كلاب) تتكرر في القصيدة بشكل واضح ، وهي تعطي معنى الاحتقار، والنجاسة ،والعدوانية في جميع السياقات، كما تتكرر أيضاً كلمة (الظباء) في مواضع متعددة لتدل على المرأة الناعمة المؤنسة ، أو الخير والنعمة، وبالتالي وكأن الشاعر يعادل بين الكلاب والمسؤولين المترفين، وبين الظباء والنعيم وأسباب السعادة، فالنعيم والجري وراءه يترك الإنسان غير المحظوظ في تعب ومشقة ، في حين يسوقه الحظ إلى من لا يستحقه دون مشقة أو تعب .

ومن هنا فابن الرومي يمثل كل إنسان غلبه الزمان وفاته الحظ السعيد، ولم تقف عنده الكواكب والأبراج، فهو شاعر –كما يبدو– مصيري، لا يقف عند رؤية الواقع، بل يمد شعاع بصيرته إلى الأبعاد إلى غاية الحياة، ويجعل من الناس في المجتمع شركاء له في البحث عن هذه الغاية، واستنكار تفرد البعض بها دون الآخر أو دون الأجدر، فيجعل صوتهم يعلو صوته:

فإذا ما تعجّبَ الناسُ قالوا هل يصيد الظباءَ غيرُ الكلابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وفي هذا البيت تمتد بذور الثورة وتنتشر لتنتقل من الخاص إلى العام، ومن الذات إلى الآخر، ومن الصمت إلى القول، ومن الخنوع والاستسلام إلى الرفض والاستنكار.

إن الفعل الماضي (قالوا) المسند إلى واو الجماعة يدل على أن الفعل امتد من الفرد إلى الجماعة، كما يوحي معناه بالرفض والاستنكار، واتخاذ القول شكلاً من أشكال الثورة وخطوة من خطواتها، فالناس بدأوا يعبرون عن رفضهم ومن ثم –ربما– انقلابهم من أجل العدالة الاجتماعية.

ويصرح ابن الرومي باضطراب أمور الناس وسوء معيشتهم، في حين أن المسؤولين وأبناء الطبقة المترفة مشغولين، فيقول:

أصبحوا ذاهلين عن شَجَن النا س وإن كان حبلُهم ذا اضطرابِ
في أمورٍ وفي خمورٍ وسمُّو رٍ[34] وفي قاقُمٍ[35] وفي سِنْجابِ
وتهاويلَ[36] غير ذاك من الرَّقْ م ومن سُندسٍ ومن زِرْيابِ
في حَبيرٍ مُنمنَمٍ وعَبيرٍ وصِحانٍ فسيحةٍ ورِحابِ

يدل البيت الأول من الأبيات السابقة على تباين واضح بين حال طبقتين من المجتمع: الطبقة المترفة بما فيها من مسؤولين ، وطبقة عامة الشعب. كما توحي صيغة اسم الفاعلين (ذاهلين) وما يليها من أبيات بسعادة الطبقة المترفة وطبيعة معيشتها، وشدة انشغالها عن مسؤوليتها لدرجة الذهول وكأنهم يعيشون لعالمهم فقط، أما الشطر الثاني من البيت فهو صورة موجزة عن حال طبقة عامة الشعب، لكنها تحمل معاني كثيرة : كالفقر والجوع، والبؤس والحرمان، وقلة الملبس، وضيق المسكن (وإن كان حبلهم ذا اضطراب) وتشير كلمة (حبلهم) بمعناها الدلالي إلى امتداد معاناتهم وطولها، وتعقد حياتهم.

وبالتالي فإن ابن الرومي وإن بدا للقارئ أو السامع أنه يتحدث عن الطبقة المترفة من المجتمع فقط إلا إنَّه يومئ إلى نقيضها، فكل ما تعيشه هذه الطبقة من

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

نعيم وسعادة ، وغنى وقصور، ولباس فاخر، فإنَّ عامة الشعب –الطبقة الفقيرة– تعيش الحرمان من كل ذلك، فهو لا يعرض لتفصيلات حياتهم –أعني الطبقة المترفة– بهدف الإعجاب أو الإطراء والمديح لكن بهدف التعريض والنقد والإدانة.

وها هو يتناول أسباب انشغالهم عن أمور الناس مرة أخرى، فيقول: (في أمور) وكأنه يريد أمورهم الخاصة وما سبق أن أشار إليه من شرب الخمرة ومداعبة الجواري، ثم يقف عند جوانب أخرى أكثر خصوصية كاللباس والمسكن، فهم يلبسون أفخر أنواع الألبسة وأثمنها، (في خمورٍ وسَمورٍ وفي قاقم وفي سنجاب) وكلها حيوانات يتخذ من جلودها وفرائها أجود أنواع الألبسة، كما أنها حيوانات بعيدة الموطن، وهذا يعني أنها تستحضر بتكاليف باهضة الثمن.

ونلاحظ في هذا البيت ورود الجناس غير التام (أمور –خمور) وكذلك (خمور– سمور) بالإضافة إلى تنوين الكسر في حرف الراء (رٍ) مما يوحي بصوت رنين متكرر ومتعاقب، ولعل الشاعر أراد بهذا الصوت أن يبعث في نفس السامع تنبيهاً وإيقاظاً لحال تلك الطبقة، ومن ثم إذكاء روح الثورة في نفوسهم من خلال المعاني المبثوثة في هذه الأبيات كانشغال المسؤولين وغناهم وترفهم مقابل حرمان عامة الشعب.

وبعد هذا الرنين وتعداد أنواع الفراء واللباس المختلفة و تحديد البلاد المستوردة منها، يأتي إلى شرح كيفية حياكة هذه الأقمشة، إذ تنقش وترسم عليها التصاوير (وتهاويل) بالإضافة إلى تخطيطها بأنواع الخطوط والعبارات _ وربما الأشعار أحياناً _ بماء الذهب وهذا يدل على تكلفتها الباهضة وشدة عنايتهم بأناقة ملبسهم ، وقد كانت الكتابات الشعرية في ذلك العصر ظاهرة حضارية فلا نجد أثراً إلا وعليه كتابات شعرية ، بدءاً من الدور وما تحويه من الفرش والمتاع والمقتنيات، ومروراً بالمساجد والقبور ، وانتهاء بما كتبته الجواري على لباسهن أو أجسادهن أو أدواتهنّ [37].

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ولا ينسى ابن الرومي أن يشير إلى ما يتمم الأناقة ويشذي النفس إذ يبين لنا أنهم يتخذون أطيب أخلاط العطور، مما يبعث في نفس الطبقة الفقيرة الألم والوجع والحسرة، وهذا ما يوحي به التنوين المتتابع في قول الشاعر:

فـــي حَبيـــرٍ مُنمـــنَمٍ وعَبيـــرٍ وصِـــحانٍ فســـيحةٍ ورِحـــابِ

فإن كان هذا ملبس ومعطر الطبقة المترفة فإن الفقراء وعامة الشعب يلبسون الثياب الرثة ويتعطرون عرق أجسادهم ،وبيوتهم خربة لا تتجاوز أن تكون غرفة ذات شقوق تداهمها المياه، وتسكن جدرانها الفئران.

وإن كانت بيوت الأثرياء ذات صحان فسيحة وميادين مملوءة بالبساتين وأنواع الفاكهة فإن بيوت الفقراء والعامة ضيقة ، وجدرانها متشققة ، تسكنها الفئران . وقد صور حدائق أولئك الأثرياء والمسؤولين، فقال:

فـــي ميـــادين يختـــرقن بساتيـــ ن تمـــسُّ الـــرؤوس بالأهـــدابِ

ليس ينفك طيرُها في اصطخابٍ تحت أظلالِ أيكها واصطحابِ

مـــن قـــرينَيْنِ أصـــبحا فـــي غِنـــاءٍ وفريـــدين أصـــبحا فـــي انتحـــابِ

إن بيوتهم واسعة تخترقها البساتين الخضراء، فتوحي كلمة (ميادين) بشدة اتساعها، كما تدل الصورة الفنية على جمالها، فقد صور الشاعر هذه البساتين التي تتدلى منها الخضرة والورود والفاكهة بعيون ذات أهداب وقد مست هذه الأهداب رؤوس المارين من تحتها.

ولا بد أن هذه البيوت ذات البساتين والحدائق الغناء موطن محبب للطيور الشادية، ولشدة سعادة هذه الطيور فإن أصواتها مستمرة ومتنوعة النغمات، وحركتها لا تنقطع.

ولو تأملنا كلمتي (اصطخاب- اصطحاب) لوجدنا أن تنوع مخارج حروفهما تتوافق مع معناهما، فهما تدلان على تنوع الأصوات والحركة وكذلك مخارج حروفهما.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

ويقيم الشاعر من صورة هذه الطيور مفارقة نستقي منها معاني عديدة، إذ أنَّ بعض هذه الطيور متآلفة ومقترنة وتشدو بألحانها سعيدة (من قرينين أصبحا في غناء) وبعضها الآخر مفترقة ومحزونة (فريدين أصبحا في انتحاب).

وهنا نلمح ثنائية ضدية لا يخلو منها عالم الإنسان أو الحيوان فإن كان المجتمع الذي يعيشه الشاعر يشهد تناقضاً بين سعادة وشقاء ، وغنى وفقر، وترف ولهو، وبؤس وحرمان، فإن هذه الثنائية سر من أسرار الحياة، استطاع الشاعر بفنه أن يجعل منها لوحة فنية نابضة بالحركة والحياة منذ بداية النص الشعري وحتى آخره.

وبعد ذلك يتجاوز الشاعر صورة البساتين والحدائق إلى الحديث عن ثمارها، إذ فيها أشهى أنواع الفواكة التي تشفي من أراد التداوي بها، كما تحمي من يتظلل بها من الحر أو يتقي بها من البرد، فيقول:

بين أفنانها فواكه تَشفي ... من تَداوَى بها من الأوصابِ

في ظلالٍ من الحرور[38] وأكنا ... نٍ من القُرِّ[39] جَمَّةِ الحُجَّابِ

يوظف الشاعر الطباق بشكل واضح لرسم صورة حياة هؤلاء المترفين (قرينين– فريدين) و (غناء– انتحاب) و (الحرور– القر) وكلها تسهم في تعميق المعنى وتجلية الصورة.

كما يشير إلى كثرة الحجاب الذين يتخذونهم حراساً على بيوتهم وحدائقهم، وتدل كلمة (جمَّة) إلى عددهم الكبير، وبالتالي عناية هذه الطبقة بالحفاظ على ممتلكاتها وربما خوفها من دخول عناصر غريبة إليها، أو أنَّه مظهر اجتماعي تتطلبه طبيعة حياتهم المترفة بالإضافة إلى ذلك فإن كثرتهم تدل على كثرة الأموال التي تصرف في مواضع لا تجني إلا العبء الاقتصادي على كاهل الدولة.

لقد امتلك هؤلاء المترفون كل ما تشتهي النفس من أكل وشرب وجواري وخدم وحجاب، وقصور وحدائق، وأفخر أنواع اللباس والعطور، فيقول فيهم أيضاً:

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

عنـدهم كـلُّ مـا اشـتهوْهُ مـن الآ كـــال والأَشْـــرِبات والأشـــوابِ

والطروقـــات والمراكـــب والولـــ دان مثـــل الشـــودان الأســـراب

واليلنجـوج فـي المجـامر والنـد تـــرى نشـــره كمثـــل الضـــباب

والغـوالي وعنبـر الهنـد والمســ ـك علـى الهـام واللحـى كالخضـاب

ولـديهم وذائـل الفضـض البيـ ض تبـــاهي ســـبائك الأذهـــاب

وبالإضـافة إلـى ذلـك نجـد لـديهم النـوق وأنـواع المراكـب الأخـرى فضـلاً عـن الغلمـان الذين يتصـفون بالجمـال، وكذلك البخـور والنـد، ولكثرتـه وشـدة اهتمـامهم كـان يملأ قصورهم كالضباب، وقد استخدم الشاعر صيغة الجمع وجمع الجمع للدلالة على الكثـرة (الآكـال، الأشـربات، الأشـواب، الطروقـات، المراكـب، الولـدان) كمـا يوظـف الصـورة الفنيـة (مثـل الشـودان الأسـراب) و (كمثـل الضـباب) ليجعـل القـارئ أو السـامع على اطلاع وتصور لمظاهر حياة هؤلاء المترفين.

ويربط الشـاعر بين استخدامهم أنواع البخور التـي تنتشـر فـي أرجـاء القصـور وبين استخدامهم أنواع العطور والطيب المختلفة (الغوالي، عنبر الهند، المسك) وكلها أنواع ثمينـة وبعيدة المنشأ، وقد كانوا يبالغون بالتطيب بها حتى بدت على رؤوسهم ولحاهم كالخضاب، وإلى جانب ذلك يكشف ابن الرومي عن أنواع المرايا التي كانوا ينظرون فيها، فهي مفضضة تكاد تكون أجمل من سبائك الذهب، كما نلاحظ أن الشاعر يستخدم صيغة جمع الجمع بشكل واضح (الفضض، الأذهاب) وهذا يدل على كثرة الفضـة والـذهب لـديهم، ولا يكتفـي بـذلك بـل يبـين لنـا أنهـا مـن الفضـة الخالصـة والذهب المسبوك.

هكذا اجتمعت لدى هذه الطبقة المترفة جميع أسباب السعادة، وتوفر لديها كل ما تشتهي النفس أو تخطر به الخاطر، حتى انشغلوا بملذاتهم وأغفلوا مسؤولياتهم، بينما كان نصيب عامة الناس التعاسة والشقاء، والفقر والجوع، والبؤس والحرمان.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

لقد أفاض ابن الرومي في حديثه عن ملامح حياة أولئك المترفين ليكون حديثه هذا دعوة إلى العدالة الاجتماعية، وانتصاراً للعلماء والأجلة من الناس، وإدانة للخلفاء والوزراء والمسؤولين وكل من له صلة بهم، ثم بوحاً بأمنيات إنسان مغلوب ومقهور، قادته شجاعته الأدبية أن يشجب الواقع، ويعارض السلطة، ويفتح عيون العامة على أسباب الخلل والضعف في بُنية مجتمعهم ونمط حياتهم المترعة بالآلام والأحزان.

الشريحة السادسة :استجداء وعتاب (118-140)

يستهل الشاعر الشريحة الأخيرة بتأكيد جدارته بالثروة والمنصب، ونفي استحقاقه لما هو فيه من ظلم أكاديمي واقتصادي –إن جاز التعبير– فيقول:

لم أكُن دون مالكي هذه الأمـ لاكِ لو أنصفَ الزمانُ المُحابى

يبدو ابن الرومي من خلال هذه القصيدة وغيرها أبرز تتويج لشعر التظلم من الحيف الاقتصادي والاجتماعي، ولموقف التشهير بالتفاوت الطبقي في المجتمع العربي القديم وفي عصره خاصة، كما يبدو شعره في هذا المعنى قمة في وصف حرمان الفنان في عصر تقاسم عقائل المال فيه حراس الدولة من الشرطة وضباط الجيش وكبار التجار الذين ملكوا كل شيء، وفي ذكر اختلال أحوال الفقراء، لوجودهم في مجتمع اتصف أغنياؤه بالأنانية وغلظ الكبد، وصمتت فيه نداءات الأخلاق القديمة وضعفت فيه أوامر الدين ومؤسسات الدولة[40].

وكأن الشاعر في هذا البيت يصرخ مطالباً بمكانته الحقيقية والتي يستحقها، ويطالب بالعدالة الاجتماعية وإنصافه (لو أنصف الزمان) ثم ينتقل موظفاً أسلوب الالتفات من ضمير المتكلم (لم أكن) إلى ضمير المخاطب (أنت طب) لمخاطبة أبي سهل بن نوبخت ومعاتبته، فيقول:

أنـت طَـبٌّ بـذاك لكـن تغابيْـ تَ وحابيـتَ كـلَّ كـابٍ ونـابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

آتيـاً مـا أتـى الزمـانُ مـن الظلـ مِ وهاتيـك منـك سـوطُ عـذابِ

إن أبا سهل بن نوبخت على معرفة تامة بكفاءة ابن الرومي وجدارته لكنه أظهر الغباء وعدم الفطنة ومال بدون حق مع كل عائب وشاذ ممن حوله، وكان عوناً للزمان عليه، فأصبح الشاعر يعاني عثرات الزمان و ظلم الصديق.

وبعد بيتين من العتاب الموجه إلى أبي سهل ينتقل إلى الحديث مرة ثالثة عن انقلاب الأوضاع في المجتمع، وتباين الحظوظ وكساد الأدب والحكمة، فيقول:

قاتَـــل اللَّـــهُ دهرَنـــا أو رمـــاهُ باسـتواءٍ فقـد غـدا ذا انقـلابِ
يَعْلِـفُ النـاطقين مـن جَـوْره الأجْ لالَ والنـاهقينَ محـضَ اللُّبـابِ
ثـم تَلقـى الحكـيمَ فيـه يُمـالي كـلَّ وغـدٍ علـى ذوي الآدابِ
جانحـاً فـي هـواهُ يَحكـم بـالحَيْ فِ علـى الأنبيـاء للأحـزابِ
لا يَعُـدُّ الصـوابَ أن تغمـر الثـرْ وةَ إلا ذوي العقـولِ الخـرَابِ
غيـرَ مسـتكثرٍ كثيـراً لـذي الجـهْ ل وإن كـان فـي عديـد التـرابِ
وإذا مـــا رأى لحامِـــلِ علـــمٍ قـوتَ يـومٍ رآه ذا إخصـابِ
فمتـى مـا رأى لـه قـوتَ شـهرٍ عـدَّهُ المُلـكَ فـي اقتبـال الشـبابِ

يبدو أن غرض الشاعر الرئيسي في هذه القصيدة –وهو عتاب أبي سهل– كان غرضاً شكلياً، فهو لم يوجه عتابه له إلا في أبيات معدودة، وكان على ما يبدو يؤطر لموقف الشاعر والفنان الأديب من التفاوت الطبقي في مجتمعه، وضعف مؤسساته، وفساد القيم والأخلاق فيه، وإن كان بعض الشعراء الشعبيين قد وقفوا الموقف نفسه ورفضوا ما كان من فساد اجتماعي واقتصادي إلا إنَّهم اختلفوا مع ابن الرومي وكبار الشعراء في إخراج المعنى، إذ إنَّ الشعراء الشعبيين قدموا المعنى مباشرة وبشفافية وبطريقة تنحى منحى السخف والسخرية وتعمد إلى الإضحاك، ولم تكن نصوصهم تتميز بالسمك الفني والتكثيف التعبيري الذي كان لدى كبار الشعراء.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وها هو ابن الرومي يلعن الدهر الذي اختلفت فيه الموازين واضطربت أحوال الناس وتباينوا في الحظوظ، ثم يصور نصيب الشعراء والحكماء في هذا الدهر بعلف الدابة بينما نصيب السفهاء زبد الأشياء الخالصة. " ويلحظ بعض الدارسين أنّ لفظة " الدهر " في ديوان ابن الرومي لفظة محورية كثيرة الدوران فيه، توجد وسط ألفاظ سياقية تدل عليها وهي : التفريق– الانقلاب – العناء – الفاجعة .

ويقدم من خلال صيغتي اسم الفاعلين (الناطقين، الناهقين) دلالة معنوية تتمثل بتمايز المستوى الفكري لكل من العلماء والشعراء (الناطقين) والسفهاء وأسافل القوم من شرطة وكتاب وتجار (الناهقين) وتحمل هذه الصورة كذلك تبايناً في المعنى والصوت، فصوت الناطقين صوت بشري مرغوب في سماعه وذو معنى، بينما صوت الناهقين صوت حيواني مرغوب عن سماعه ويخلو من المعنى أو الفائدة.

وقد أصبح الحكيم في هذا الزمان يمالئ الأراذل من الناس ويساندهم، بل خرج عن دوره الإنساني الذي عرف له ليقف مع المبطلين دون المحقين، وخرج كذلك عن المقاييس والحقائق فعد الصواب خطأ والخطأ صواباً، فرأى أن أصحاب العقول الخربة هم الذين يستحقون الثروة، واختلفت كذلك نظرته للعلم وقداسته، فعطل حقهم في العطايا وقصر في إكرام وفادتهم ومكافأتهم المالية التي يستحقونها.

وإذا أمعنا النظر في هذه الأبيات وحاولنا ربطها بما يليها لوجدنا أن المقصود بـ (الحكيم) هو أبو سهل بن نوبخت وكل من يساويه في المكانة والقدر، ولذلك فقد انتقل من خلال أسلوب الالتفات من ضمير الغائب (فمتى ما رأى) إلى ضمير المخاطب (لا تصمم) في الأبيات التالية:

لا تُصَمِّمْ على عقابك إيَّا ... يَ إذا أحسنَ الزمان ثوابى

فعسى يُمْنُ ما تُنيلُ هو القا ... ئِدُ نحوي مواهبَ الوَهَّابِ

فمتى ما قَطَعْتَهُ جرَّ قطعاً ... للعطايا من سائر الأصحابِ

كم نوالٍ مباركٍ لك قد قا ... د نوالاً إليَّ طوعَ الجنابِ

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وأُمـــورٍ تيسّـــرت وأمـــورٍ بالمفـــاتيح منـــك والأســـبابِ

تشير بعض الدراسات الأدبية إلى أن " قصائد الاستنجاز وعتاب الممدوحين كانت ظاهرة استشرت في القرن الثالث الهجري، وارتبطت بتراجع العطاء على المدح وأسهمت في تضخم هذا النوع من الشعر " [41]. ولعل ابن الرومي من أكثر الشعراء استنجازاً وعتاباً على تأخر العطية، وأكثرهم شكوى من كساد الشاعر، فكان شعره في الممدوحين والأصدقاء أكبر من عطاياهم مما زاده بؤساً ونكداً فها هو يرجو من أبي سهل أن يمن عليه بالعطاء، مذكراً إياه بأعطيات له كثيرة كانت سبباً في الرزق وتيسير الأمور.

ويبدو أنَّ الشعور الانفعالي لدى الشاعر قد أخذ بالفتور والبرود، وتراجعت حدة موقفه لا قبولاً وتسليماً لواقع العصر بل رغبة في كسب ود الممدوح وعطائه وتعويض حرمان الذات المقهورة مادياً ومعنوياً.

ثم يوظِّف الأساليب الإنشائية من نهي وأمر لبلوغ المعنى وتوطيد أركان الخطاب مع ممدوحه فيقول:

لا تُقابِـلْ تَيَمُّنـي بـك بـالردْ دّ ولا الظـــنَّ فيـــك بالإكـــذابِ

فـاحم أنفـاً لأنْ يُعَـدَّ مُرجِّيـ كَ ســـواءً وعابـــدُ الأنصـــابِ

فتكـونَ الـذي تَنصَّـل بالمُنْـ صُلِ من ضـربةٍ بصَفْح القِرابِ

يضفي الشاعر في هذه الأبيات على ممدوحه لبوساً دينياً فيجعله موضع تبرك ورجاء، ويباين بين حاله وحال من يتبرك ويعبد الأنصاب، إذ إنَّ عابد الأنصاب لا يجني فائدة من عبادته هذه كما لا ينفعه ولا يضره معبوده، بينما أبي سهل فإنه موضع رجاء وأمل ؛ لأنه قد خبره في مواضع سابقة (كم نوال مبارك لك).

وقد طلب منه أن يحمي أنفه من الضيم، فكان موفقاً في استخدام كلمة (أنف) بمعناها الدلالي، فكلمة أنف تدل على العزة والكرامة والشموخ، فكان من الواجب على أبي سهل أن يصون كرامة صديقه ، ويحفظ عزته ورجولته وشموخه ،

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

وألا تكون قطيعته ضربة قاتلة ولا يلبث انفعال الشاعر أن يستمر قليلاً في البرود والاستعطاف حتى يأخذ بالتزايد والحدَّة مرة أخرى، فيقول:

إن في أنْ تَعُقَّني بعضَ إغضا بي وفي أن تهينَني إغضابي

كنتَ تأتي الجميلَ ثم تنكَّرْ تَ فعاتبتُ مُجملاً في العتابِ

فأْتَنِفْ توبةً وراجعْ فعالاً ترتضيهِ الأسلافُ للأعقابِ

يستخدم الشاعر هنا معنى شرعياً يحتم على أبي سهل البر والعطاء، فيعد منعه العطاء عقوقاً (تعقني) بما توحيه الكلمة من معنى التقصير في الطاعة وإهمال الواجبات المترتبة عليه، كما توحي بالذنب والعقاب، وإن عقوق أبي سهل للشاعر وإهانته سبب في إغضابه .

تم تعلو نبرة الغضب وتأخذ طريقها إلى التهديد، فيبين لأبي سهل أن عتابه في هذا النص الشعري كان مجملاً لا مفصلاً، وكأنه ينذره بنصوص شعرية لاحقة إن تأخر في العطاء، لا غرو أن الشعر سيفه الذي يشهره في وجه أعدائه أو يدافع عن ذاته.

وهنا يستخدم الشاعر أفعال الأمر تباعاً وبنبرة كلها أنفة وحدَّة (فأتنف) و (راجع)، ويطلب منه الرجوع إلى فعاله الخيرة والتوبة عما بدا منه من تقصير وعقوق، وهنا يربط الشاعر بين العقوق والتوبة، فالتوبة تجبُّ ما قبلها، كما تستوجب فعل الخير والإقلاع عن الخطأ، إنه يطلب منه توبة وفعلاً خيراً ترتضيه الأسلاف للأعقاب.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الخاتمة :

يتخذ ابن الرومي موقفاً حازماً من الطبقية والتفاوت الاقتصادي في عصره، ويرفضهما متأذياً من تباين الحظوظ في الثروة والمكانة الاجتماعية، وغير مقتنع بشرعية ذلك التباين، فنجده في هذه القصيدة يتظلم من ارتفاع نصيب غيره واتضاع نصيبه، ويثور كذلك على ذلك التباين ضارباً صفحاً عن مظاهر التعليل التأملية والزهدية، ربما لأنه أصبح يمثل شريحة كاملة من شرائح المجتمع، أولئك العلماء والشعراء الذين كسدت بضاعتهم، وانحط شأنهم، وعلا شأن أسافل القوم الجهال، إنه يعمد إلى إظهار السخط وإبداء الشكوى من اختلاف حظوظ الناس في هذا المجتمع والنقمة على إثراء الغير وافتقار الذات بما يعبر عن رغبة مقموعة في الثراء والمنصب، وشعور بالإحباط منبعث من ذلك القمع ، ولقد عبر عن موقفه هذا من خلال المقابلة والتضارب، وهو وإن فصل في شرح أحوال الأغنياء والمسؤولين في مجتمعه فإن تفصيله وشرحه هذا يعني تجرده وتجرد العامة من كل ما يذكر من نعيم وهناء. إنها مقابلة تحتاج من القارئ إلى استنباط وتحليل واستشفاف نفسية الشاعر من بين شرائح قصيدته المختلفة.فالشاعر في جدل مستمر بين ذاته والآخر، وبين الشقاء والسعادة ، وبين الفقر والغنى ، وبين الجهل والعلم ، والقبح والجمال، والحظ السيء والسعيد ، وبين المعقول واللامعقول ، إنه في جدل مستمر تفرضه الحياة بتفاوتها وتنوعها ، وقد انتصر ابن الرومي لعامة الناس ، وقدم صورة للتباين الطبقي في مجتمعه من خلال جدل بين (ذاته) التي تعكس صورة (عامة الناس) وبين (الآخر) الذي يعكس صورة (السلطة) ساعده على ذلك طول نفسه الشعري وقدرته على استيفاء المعنى .

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

الهوامش

(1)أبو سهل بن نوبخت : هو إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت أبو سهل ، كان شيخ المتكلمين ببغداد ووجههم ومتقدم النوبختيين ، يعدُّ من غلاة الشيعة ذكره النجاشي وابن النديم ، له مصنفات لم يصل منها إلا قسما من كتاب " التنبيه " وورقة أو ورقتين من كتاب " الأنوار " من مصنفاته أيضا " الاستيفاء في الإمامة ، الانوار في تواريخ الأئمة عليهم السلام .

(2)ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج: الديوان، تحقيق د. حسين نصار، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1993.

(3) قاب العقاب: كناية عن ارتفاع السفهاء

(4) الذّر: صغار النمل.

(5) شائل الوزن: خفيف الوزن.

(6) اليم: البحر.

(7) العُباب: الموج

(8) اختللت: افترقت واحتجت.

(9) سامي يوسف أبو زيد وعبدالرؤوف زهدي : بناء القصيدة في شعر ابن الرومي ، مجلة علوم إنسانية ، العدد 35 ، السنة الخامسة ، 2007 ، www.ulum.nl.

(10) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر 238/2

(11) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 3،1977/358.

(12) علي شلق: ابن الرومي ملامح وأبعاد، الشركة الشرقية، لبنان، 1970، ص 102

(13) النُّهية: العقل.

(14) ابتسام أحمد حمدان: الأسس الجمالية والايقاع البلاغي، دار القلم العربي، حلب، الطبعة الأولى،1997، ص177-178.

(15) ذنوب: القليل .

(16) ذناب: الوفير و الكثير .

(17) الشؤبوب: الحدّ

(18) الأوقاب: جمع وقب وهو النذل الدنيء.المعُرِق: العريق في الكرم أي الأصيل.

(19) محمد عبدالقادر أشقر : المؤثرات البيئية والشخصية في شعر ابن الرومي ، موقع موسوعة دهشة ، www.dahsha.com.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

(20)النبط: قوم كانو يسكنون بين العراق العربي والعراق العجمي، والواحد منهم نبطي، وكلامهم فيه عجمة، إذ يعتبرون بعبارة صحيحة عما يريدون.

(21)جابر أحمد عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، 1998، ص 126.

(22)حسن عباس: خصائص الحروف العربية ومعانيها، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.م)،1998، ص126.

(23) الكواعب: جمع كاعب وهي الناهدة الثديين.

(24) شوقي ضيف : العصر العباسي الثاني ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، القاهرة ، 1975 ، ص53 وما بعدها .

(24) الكواعب: جمع كاعب وهي الناهدة الثديين.

(25)حامد صادق قتيبي وسامي أبو زيد: محاضرات في الأدب العباسي(الشعر) دراسة ونصوص، دار ابن الجوزي، عمان،2006، ص227.

(26) للاطلاع انظر الشابشتي ، أبو الحسن علي بن محمد ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، الطبعة الثانية ، مكتبة المثنى ، بغداد ، 1966 ، ص159 وما بعها .

وانظر الصابي، أبو الحسن الهلال بن المحسن، الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية نعيسى البابي الحلبي وشركاه، 1958، ص11 وما بعدها

(27) خندريس: الخمر.

(28) لبّات: جمع لبّة وهي موضع القلادة من الصدر.

(29) الناجود: الخمرة وإناؤها.

(30) حباب: فقاقيع تطفو عليه كأنها اللآلئ.

(31) نجارها: أصلها أو يماثلها.

(32) سَخاب: القلادة.

(33) الأقتاب: الأكف الصغيرة التي تجعل على أسنمة الأبعرة.

(34) جِراب: وعاء.

(35) الملاب: الطيب أو/ الزعفران

(36) السَّمُور: دابة يتخذ من جلدها فِراء مثمنّة.

(37) القامُم: حيوان ببلاد الترك على شكل الفأر وفروته أطيب الأنواع.

Edited with the trial version of
Foxit Advanced PDF Editor
To remove this notice, visit:
www.foxitsoftware.com/shopping

(38) تهاويل: الزينة من النقوش والتصاوير.

(39)أحمد فهمي عيسى: الكتابات والنقوش الشعرية في العصر العباسي، مكتبة نانسي، دمياط، 2003، ص15.

(40) الحرور: الريح الحارة.

(41) القّر: البرد.

(42)مبروك المناعي: الشعر والمال، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، 1998، ص480-481.

(43)المرجع نفسه، ص 206.

(44) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، الطبعة الأولى ، دار صادر ، بيروت ، 2000.